8. توسيع دائرة شارع أوكسلي

في أيلول (سبتمبر) من عام 1952 وصل إلى مكتبي رجل مالاوي طويل، يبدو هندياً، في أواخر الأربعينيات من العمر وله أنف رفيع. كان يتحدث الإنكليزية جيداً ولكن بطريقة مترددة مع بعض التلعثم. عرّف على نفسه: يوسف إسحاق مالك، ورئيس تحرير (أوتوسان ميلايو) ومديرها الإداري. وكان معاونه الأول صمد إسماعيل قد تورط ببعض الأعمال الهدامة في جزيرة سان جونز منذ أن اعتقل في كانون الثاني (يناير) عام 1951، ولكن سرعان ما رُفعت قضيته للمراجعة، هل أستطيع أن أمثله؟

جميع القضايا المِيْؤُس منها أو شبه المِيْؤُس منها ضد الحكومة، كانت تأتيني وكأنني الملجأ الأخير. كنت قد اشتغلت في عدد من القضايا الشائكة (التي يقاضي فيها مواطن عادي الدولة)، وحصلت على أحكام ضد موظفين صغار، وفي إحدى القضايا المشهورة وجّهت تهمة جزائية (سوء ائتمان) إلى ضابط ذي رتبة عسكرية عالية، هو جورج أنسيل هارد كاسل، رئيس الوحدة النارية في القاعدة البحرية (فاير بريدج)، لإساءة استخدام الصندوق الخيري للعمال. جرت القضية أمام قاضٍ بريطاني في المحكمة الجزائية، والذي برّأه. فاستشارني رجال الإطفاء الغاضبون، واستأنفوا ضد هارد كاسل مطالبين إياه بالتعويض والأضرار أمام المحكمة العليا كي يعطوا للقضية أبعاداً شعبية واسعة. بيد أن رفاقه الضباط عرضوا مبلغ 12 ألف دولار، وهو المبلغ المطلوب للتعويض ودفع التكاليف القضائية قبل أن تُعرض الدعوى ويجري الاستماع إليها، وبذلك يحولون دون تعرض زميلهم للإهانة والتعرض للعقوبة. ذلك كان الجو المشحون بالكراهية وعدم الثقة الذي كنا نعيش فيه.

ولكن قضية صمد لم تكن قضية حقوقية. بل كانت تصرفاً سياسياً من قبل إدارة استعمارية مُهددة بعصيان مسلح شيوعي، وضغوط متنامية من جانب القوميين المطالبين بالاستقلال. وكانت المعالجة الفضلى هي إقناع الحكومة بأن هذا المحتجز الخاص قد يكون قومياً وقد يصبح بالنتيجة مناهضاً إن لم يكن عدواً للشيوعيين، حتى ولو كان يسير معهم في الوقت الراهن. قررت أن آخذ القضية بدون الإشارة إلى جون ليكوك. وهذا ما سيجعل (أوتوسان مالايو) يدفع الغرامة.

لم أكن أتوقع الوصول إلى نتائج ليس من شأنها إلا أن تضغط على الحكومة، لذا قررت أن استدعي ضابط (الفرع الخاص) ليكشف لنا عن الموضوع الحقيقي لموكلي وماذا لديهم ضده؟. ويشاء الحظ أن يسوقني إلى المراقب المشرف ريتشارد بيرن كوريدون والذي كان المسؤول عن قسم الهنود الذين يتكلمون الإنكليزية في (الفرع الخاص) وخبيراً اشتغل في كثير من القضايا المشابهة في الهند البريطانية، ويعرف الفرق ما بين الهنودالقوميين والهنود الشيوعيين.

كنا قد التقينا سابقاً. فقد درس مصنفي، وزارني في أحد أيام الآحاد صباحاً في وقت مبكر من عام 1952 في 38 شارع أوكسلي، لمجرد تبادل الحديث. قال: إنه قرأ عن نشاطاتي في لندن وأنه مهتم بلقائي ليعرف المزيد عن الشيوعيين هناك، مثل ليم هونغ بي، وتأثيرهم في سنغافورة والطلاب المالاويين. فأخبرته عما أظنه في ليم هونغ بي، وعن الكراهية بين الشيوعيين الذين يجابهون المثقفين بالثقافة الإنكليزية في لندن، وأضفت بأنه بعد اعتقال ايبير Eber وجماعته في سنغافورة في كانون الثاني (يناير) 1951 فلربما كنت مخطئاً. وفي الوقت نفسه لقد برأته من الشبهات المتعلقة بالفرع الخاص والمتعلقة بمهرجان الشباب في بودابست. قلت: إن دينيس ذهب إلى المهرجان لقضاء عطلة جميلة، وإنه لا علاقة له بالسياسة. واكتشفت بعد سنوات أن هذه العبارة وجدت مكانها في أضابيرهم.

الآن أقابله في مكتبه في (الفرع الخاص) في شارع روبنسون. كان منفتحاً للغاية. قال: إن صَمَدْ مالاوي ذكي، ونشيط جداً، ومتعاون من الدرجة الأولى. سألته: ما إذا كان شيوعياً؟. قال: (إنه ألمع الشيوعيين الذين عرفتهم). ولم يفدني هذا بأي معنى إلى أن قال (ولكن الناس يكبرون وعقولهم تتغير مع الخبرة والتجارب. اعمل من أجله. إنه يستحق الإنقاذ).

قدمت لي الشرطة قارباً كي يأخذني إلى جزيرة سان جون، وهو احتفاء يُقدم للمحامين الذين يمثلون المتهمين. كانت جولة لطيفة بالقارب، استغرقت 20 دقيقة في يوم عمل بعد الظهر، تلاها 20 دقيقة من السير على الأقدام وصولاً إلى الشاطئ الشمالي للجزيرة. ووسط الأشجار الباسقة الجميلة كنت تجد بعض المنتجعات الساحلية الحكومية. وبالقرب منها صفوف طويلة من الأبنية تشبه الثكنات محاطة بأسوار مخصصة لمدمني الأفيون لإعادة تأهيلهم. وكان ثمة مبنى آخر محاط بالأسلاك الشائكة مخصص للمحكومين السياسيين.

وأخيراً جاؤوني بالمتهم وهو رجل نحيل متوسط الطول يرتدي نظارتين، يبدو في حالة بائسة بشاربه المعوج وسنه الأمامية المكسورة. كان يبدو متشككاً. إذ ربما كان يتوقع أن يمثل أمام لجنة استشارية على رأسها قاض من المحكمة العليا واثنان من المساعدين.

قلت له إن الأمر يعتمد على ما إذا كان (الفرع الخاص) يعتقد أنه سيستمر في أن يظل شيوعياً، وفي هذه الحالة سيحتجز ثانية وثالثة. ولكن إذا عمل بعد تحريره كقومي فمن المحتمل أن يدعوه وشأنه. عبر عن شيء من الفظاظة. كانت هذه المرة الأولى التي ألتقي فيها وجهاً لوجه مع عضو معتقل من المنظمة الشيوعية. كنت جاهلاً بنفوسهم وطريقتهم في إثبات وجودهم، وكيف أنهم أصحاب قناعة وقوة. وقادرون على تحمل الأذى والصعاب من أجل قضية تستحق أن يضحي من أجلها الرفاق الماركسيون.

عقدت مراجعة قضيته في غرفة القاضي بدون جمهور. فالقاعدة الأساسية لاتهامه أنه عضو في الحزب الشيوعي MCP، ورئيس قسم الملايو بمؤسسته المساعدة (عصبة شعب سنغافورة المعادية لبريطانيا) استمع القاضي إلى مرافعتي لأنه كان أساساً معادياً للاستعمار و مالاوياً قومياً، وهو كمواطن من الملايو لا يمكن أن يقبل بالدعوات الشوفينية (للحزب الشيوعي المالاوي) الذي توجهه الصين، وأنه نظم هروب شيوعي بارز هو عبد الله سودين، لأمر لا علاقة له بالصداقة أو الولاء الشخصي، وذلك في أيلول أو تشرين الأول 1950، إلى إندونيسية عالماً بأنه مطلوب من الشرطة. لا أعرف ما إذا كنت قد أثّرت في القاضي وفي مساعديه. إذ لم يقل القاضي حرفاً، وانتهت المرافعة في أقل من 20 دقيقة.

أعيد صمد إلى جزيرة سان جون، ولكن في نيسان عام 1953، أطلق سراحه هو وعدد من المعتقلين، ومن بينهم ديفان نير. عندما رأيت نير لأول مرة بأصفاده وملابسه الرثة أحسست بأنه شخص غير محبوب. كان قصيراً وثخيناً ومشاكساً محباً للخصام وغاضباً من الدنيا. ولكن عندما لاحظ صمد نظرتي إليه أخبرني أنه رجل طيب، ومسؤول في (اتحاد المعلمين في سنغافورة) وتابع يقول: (إنه كان رهن الاعتقال، وسوف تتعلم قريباً أن تفرق ما بين المستضعفين والأقوياء). وأشار إلى معتقل هندي آخر. اسمه جيمس بوثو تشيري الذي يُكثر من الكلام، لقد كان ذكياً ظاهرياً، ولكن لا يُعتمد عليه. أما نير فهو رجل قوي ويعتمد عليه تماماً. قلت في نفسي: ربما كان الأمر كذلك ولكنني لم أحب نظراته، وما حدث بعد ذلك بوقت قصير أن (اتحاد المعلمين في سنغافورة) اتصل بي في (ليكوك و أونغ) وطلب مني أن أمثله. لم أستطع أن أرفض ولكنني لم أسترح لفكرة نجاحه. وعندما قابلت كوريدون ثانية، أعطاني ملخصاً عن نير وخصاله العُصابية. لقد تحول إلى الشيوعية على يد شارما رئيس الاتحاد.

كانت مجموعتنا الصغيرة ـ كينغ سوي، تشين تشي راجا، كيني وأنا ـ نجتمع أيام السبت بعد الظهر في غرفة الطعام في الطابق الأرضي عندي، في (شارع أوكسلي) لنبحث في إمكانية تشكيل حزب سياسي.

كانت الغرفة التي نجتمع فيها صغيرة وحارة رغم نوافذها الثلاث العريضة وبابيها المفتوحين. ولكن إذا كان الجو خانقاً فنحن لم نكن كذلك. كنا مصممين على أن نكون مختلفين تماماً عن الأحزاب الانتهازية الأنانية الضعيفة، وعن الأفراد الموجودين في (المجلس التشريعي) و(مجلس المدينة) لذلك قررنا أن ندعو صمد للانضمام إلينا كي نناقش آفات خوض نضال دستوري من أجل الاستقلال بدون أن نجد أنفسنا متهمين أو متورطين في الحركة الشيوعية. وكنا نريده معنا أيضاً لأنه يستطيع أن يوصلنا إلى العالم الذي يتحدث المالاوية ويوصل أفكارنا إلى الجماهير الملاوية من خلال (أوتوسان ميلاوي).

وبعد لقائين سألنا: ما إذا كان يستطيع أن يُحضر صديقه ديفان نير معه لأنه يمكن أن يكون إسهاماً جيداً. لم ترق لي الفكرة، ولكن رفاقي وافقوا، إذ لو أننا اقتصرنا على الأشخاص الذين نحبهم فلن نستطيع أن نوسع الحزب أبداً. وهكذا صار نير يحضر كل أسبوع، أو على الأقل كل أسبوعين، وكنا نلتقي للتحدث حول الأوضاع وما هو التصرف السياسي الذي يمكن أن نقوم به.

لم يكن البريطانيون غافلين عن تصاعد الضغوط السياسية. وفي عام 1953 عيّن الحاكم السير جورج رينديل، السفير السابق في بلجيكا، رئيساً للجنة مراجعة دستور سنغافورة واقتراح الخطوة التالية. والتي جاءت في تقريره الذي نشر في 22 شباط (فبراير) من عام 1954، التسجيل الآلي لجميع الرعايا البريطانيين المولودين في سنغافورة كمصوتين شرعيين. وهذا من شأنه أن يزيد عدد هيئة التصويت بمقدار أربع مرات. وتتشكل الحكومة الجديدة من مجلس وتسعة وزراء،ستة منهم أعضاء منتخبون يعينون بتوصية من رئيس حزب الأغلبية. ولكن تبقى الحقائب الوزارية الأساسية بيد ثلاث مسؤولين بحكم

مناصبهم وهم: الأمين العام، ووزير المالية، والمدعي العام. وباستثناء صلاحيات محدودة تتعلق بالعلاقات الخارجية والدفاع (بما في ذلك الأمن الداخلي) سيكون الحاكم ملتزماً بقبول قرارات المجلس، الذي سيكون مسؤولاً فقط أمام (الجمعية التشريعية) الجديدة. فهناك 25 عضواً منتخباً، و6 معينون، وثلاثة بحكم مناصبهم. وافق الحاكم على تنفيذ مضمون هذا التقرير في الانتخابات القادمة في شهر نيسان (ابريل) 1955.

بات من العاجل بالنسبة لي ولأصدقائي أن نقرر ما إذا كان ينبغي أن نشارك في الانتخابات في ظل الدستور الجديد، أم ننتظر ثانية في الصفوف الجانبية. كان صمد ونير من أنصار البقاء خارجاً. كانا يريدان الاستقلال ولا بديل غيره. أما راجا الذي تعلم جيداً الدرس من أخطاء (الاتحاد الديمقراطي المالاوي) (MDU) فقد وقف بقوة إلى جانب المشاركة. وكذلك كان حال كيني وكينغ سوي. كنت مقتنعاً أن عدم المشاركة سوف يبعدنا عن المسرح الدستوري، وعندئذ سيكون شأننا كشأن الـ (MDU) أو أن نعمل بصورة سرية.

وهكذا شرعنا نخطط لتشكيل حزب قبل نهاية 1954 حتى تتوفر لدينا فترة ستة أشهر قبل بدء عمليات الاقتراع.

تبدو الأمور دوماً على غير ما يرام. ففي 28 أيار (مايو) 1954، اعتقلت مجموعة من الطلاب في جامعة الملايو واتهمت بالتحريض على العصيان. أرادوا مني أن أدافع عنهم. فتفحصت الاتهامات، ووجدت أن احتمال الإدانة يصل إلى 50%. كانوا قد نشروا في مجلة (الفجر) وهي مجلة متواضعة تصدر بصورة غير منتظمة رغم أنه يفترض أنها شهرية، مقالة يمكن أنها خرقت القانون. وقبلت أن أساعدهم، وبعد بعض المراجعة نصحتهم أن تطرح قضيتهم كقضية سياسية وليس كقضية قانونية. واقترحت أن نستدعي من لندن مستشار الملكة البريطانية د. ن. بريت، المشهور بالتعامل بمهارة مع قضايا اليساريين. كان بريت في الستينيات من العمر، ويُعرف عنه كثرة الترحال وله لسان لاذع، وهو لا يعرف

الخوف من أي قاض سواء في المستعمرات أم في بريطانيا نفسها. كان منقطعاً عن المؤسسة البريطانية، وكان يعامل كمنبوذ، أو كواحد من الرجال البريطانيين المنحرفين من الطبقة البورجوازية، اختار أن يكون بروليتارياً أكثر من أي عامل فقير، مع أنه يعيش حياة رغيدة. في حزيران عام 1950 زرته أنا وتشو في شقته في لندن كي نطلب منه أن يوقع أوراقاً تتعلق بانتسابنا إلى النقابة، حيث كان (سيد المحفل المتوسط) كنت مقتنعاً أنه سيستلم القضية، مفترضاً أننا نستطيع أن ندفع له أتعابه وأن نقدم له هدية، كتبت إليه وأجابني بسرعة. نعم إنه سيأتي.

9. عالم المتكلمين بالصينية

تعرّفي على عالم المثقفين الصينيين جاء بعد الحادث الذي أطلق عليه حادث 5 ـ 1 ـ3، والذي اكتسب الاسم بعد أحداث الشعب في 13 أيار (مايو) 1954. إذ جاء إلى بيت خمس طلاب ذات مساء عام 1954، بعد وقت قصير من محاكمة (فاجار): روبرت سون لوه بون، شاب صغير فقد سنه الأمامية، كان يعمل بصفة مترجم لهم ومتحدث باسمهم، ولويس هو الذي كان يتحدث الإنكليزية جيداً أيضاً، وثلاث فتيات لهن ضفائر.

كان الصبيان والفتيات في لباسهم ولباسهن المدرسي. وكان سبعة من رفاقهم قد أدينوا لإعاقتهم رجال الشرطة أثناء أعمال الشغب، التي شارك فيها 500 صيني من طلاب المدارس المتوسطة، ولاسيما من مدرسة تشونغ تشينغ الثانوية، إذ اصطدموا مع الشرطة. كما كانوا يقومون بمسيرة تضامناً مع وفد كان يتجه إلى مقر الحكومة لتقديم التماسٍ ضد التسجيل في الخدمة الوطنية، عندما أوقفوا وأجبروا على التفرق. فراحوا يلقون الحجارة على الشرطة، إذ أصيب ستة منهم. هاجمتهم الشرطة بالهراوات وأصابت بعض الطلبة في رؤوسهم. وأصيب 26 شخصاً بإصابات مختلفة، كما جرى اعتقال 48 طالباً من بينهم فتاتان.

عُقدت المحاكمة في 28 حزيران (يونيو). اتُّهم فيها 41 طالباً بعصيان أوامر الشرطة بالتفرق، ووجد أن 26 منهم كانوا مذنبين، فحكم عليهم بستة أشهر مع إرجاء التنفيذ. وحوكم سبعة آخرون بتهم أشد، تتعلق بإعاقة رجال الشرطة. وقد طالبوا بنقل قضيتهم إلى محكمة أخرى لأن القاضي أظهر تحاملاً في الطريقة التي عامل بها وحكم بها رفاقهم الطلاب في اليوم الأسبق. كما رفضوا قولَ أي

شيء في دفاعهم، فحكم عليهم بثلاثة أشهر، وهذا هو الحد الأقصى لعقوبة تلك التهمة. إذ سيتم الاستئناف في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، هل أطلب من بريت أن يضطلع بالاستئناف؟.

تحديهم للقانون كان الاهتمام الأول للمحكمة. ولكن القضايا الجارية كانت عميقة وجوهرية. ولم يكن لذوي الثقافة الصينية مكان أو دور يضطلعون به في الحياة الرسمية للمستعمرة، التي كانت تستخدم المحليين الذين يعرفون الإنكليزية فقط كموظفين ثانويين. كانت الحكومة توفّر في المدارس الابتدائية تعليم الإنكليزية والمالاوية، وتوفر تعليم الإنكليزية فقط في المدارس المتوسطة.

أما الجماعات المهاجرة فكان الاختيار متروكاً لها. وقد جمع الصينيون التبرعات وبنوا مدارس خاصة بهم. وقد استخدموا كتباً ومقررات مطبوعة في الصين معتمدين على أنفسهم، كما استخدموا مدرسين خدموا في الصين كانوا يعلمون لغة الماندرين كما لو كانوا في غوانغدونغ أو مقاطعة فوجيان. كانوا يعيشون ثقافياً في عالم منفصل. وكان على المتخرجين أن يكملوا دراستهم بالتحول إلى مدارس إنكليزية، وبذلك يصعدون سلم المتعلمين للإنكليزية، أو يبحثون عن أعمال في شركات تستخدم اللغة الصينية، كالمحلات والمطاعم وبيوت الأعمال الصينية، أو المصارف القليلة التي يملكها صينيون. كانوا يشعرون بأنهم منبوذون، وبافتقارهم إلى الفرص الاقتصادية تحولتْ مدارسهم إلى تربة خصبة للشيوعيين، الذين كانوا ينشطون في الملايو وسنغافورة منذ عام 1923، عندما أرسلت (الكومينتيرن) (المنظمة الشيوعية) أوائل عملائهم في شنغهاي إلى الجزيرة. وبعد الحرب، أعطى سجل المقاومة ضد اليابانيين الحزب الشيوعي المالاوي MCP مكانة جعلته قوة قادرة أمام الشباب غير الواعين، ودفعته إلى بناء شبكة من الخلايا في الصفوف المدرسية. وانضم كثير من المعلمين إلى كوادر الشيوعيين أو تعاطفوا معهم، ولُقن كثير من الطلاب الغاضبين الذين انقطعت

دراستهم بسبب الاحتلال الياباني، مبادئ الحزب وتعاونوا معه. كما كانت لجان الإدارة في المدرسة المؤلفة من تجار وأصحاب محلات متعاطفة معهم أو خائفة من معارضتهم.

وما إن أُعلنت حالة الطوارئ حتى همد الشيوعيون في سنغافورة ظاهرياً، ولكنهم في الواقع كانوا ينظمون صفوفهم ويتوسعون. وفي عام 1952 أصدر البريطانيون تعليمات خدمة وطنية في سنغافورة والملايو، تتيح لجميع الذكور ما بين 18 و55 سنة من العمر أن يُقبلوا في خدمات الجيش والشرطة وقوات الدفاع المدني، وفي نيسان عام 1954 بدأت الحكومة بتسجيلهم. فقد كانت تحتاج إلى 800 من القوات العسكرية السنغافورية، و1200 شخص من قوات الدفاع المدني عن طريق الاقتراع. ولكن سير العمل كان بطيئاً. قدم طلاب المدرسة الصينية العليا التماساً إلى المسؤول عن الاستثناءات. ولكن الشروط التي وضعتها السلطات البريطانية لهذا الاستثناء، بدراسة كل حالة على حدة، كانت عسيرة وهذا ما أدى إلى الاحتجاج وإضراب 500 طالب، مما أدى في النهاية إلى قبولهم جميعاً.

لم أفهم خلفية المشكلة في ذلك الوقت، رغم أنني كنت أعلم أن شيئاً ما يجري ويغلي في هذا العالم المختلف كلياً. كان الطلاب منظمين جيداً وواعين. وكان لديهم قدرة على ضبط الذات وعلى العمل الجماعي، وعلى القيام بمظاهرات جماعية بحيث يصعب على الحكومة عزل رواد هذه المظاهرات ومعاقبتهم. وبعد الاعتقال أثاروا قضايا أخرى تمكنهم من تنظيم اصطدامات مع الشرطة من أجل وقوع شهداء وبالتالي إثارة الرأي العام ضد الحكومة. لم أعرف بواعثهم وأساليبهم إلا متأخراً. وكان على جهل بتكتيكاتهم أيضاً كثير من متعلمي الإنكليزية، بما في ذلك طلبة جامعة الملايو، واتحاد طلبتها، حتى أنهم قاموا بمظاهرة في 18 أيار (مايو) تأييداً للمتظاهرين الصينيين داعين إلى إجراء تحقيقات بشأن أعمال شغب لاستخدام الشرطة لأساليب غير ملائمة. لقد كانوا بسطاء التفكير كما كنت.

أحيا الشيوعيون على الفور ذكرى الصدام في 13 أيار بالأرقام « 5 ـ 1 ـ 3»، 5 ترمز لشهر أيار، و13 اختصار صيني لأحداث مهمة أو غير مهمة ـ حادثة تيانامين في 4 حزيران 1989 يرمز لها بـ «4/6» أي السادس من حزيران. قام الطلاب باحتجاجات واسعة، وشكلوا وفداً للأعضاء من 55 رجلاً الذي انقسم إلى عدة أقسام لجمع معلومات عن الطلبة المصابين، وتزويدهم بالمعالجة الطبية، وجلب التعاطف الشعبي.

جال الصينيون عبر شوارع سنغافورة للحصول على تأييد باقي الطلبة، والآباء، وأصحاب الحوانيت، والزعماء الصينيين المحليين ـ أي كل الجماعة الناطقة بالصينية عملياً. كانوا يجربون أساليب التحريض الشعبي التي اتبعها الشيوعيون في الصين. فعند أول إشارة للاضطراب من جانب الشرطة يعتصمون في المدارس أو المصانع، ويشكلون جماعات، ويلفتون الانتباه إليهم والتعاطف معهم، ويتحدون السلطة ويستفزون الحكومة كي (تُضحي) بهم.

وفي 14 أيار، في اليوم الذي تلا حادث 13 أيار، احتشدوا في مدرسة تشونغ تشينغ الثانوية، ولكنهم تفرقوا بعد يوم واحد، بعد أن طلبت منهم لجنة مؤلفة من اثني عشر شخصاً من (غرفة التجارة الصينية) أن يفعلوا ذلك. لقد أصبحوا ذوي شأن، وبات زعماء الجماعة الصينية يطلبون منهم الهدوء ويعدون بالتدخل مع السلطات. ورداً على الضغط من جانب الحكومة، نظراً لانتشار الشغب والفوضى، قُرّب موعد العطلة الانتصافية بمقدار أسبوعين وأُغلقت المدارس. واضطر وجهاء الجالية الصينية أن يتوسطوا لدى الحكومة لقبول عدة مطالب للمضربين الصينيين، منها إطلاق سراح الموقوفين، وإجراء تحقيق في الحادث، والإعفاء من الخدمة الوطنية، وغيرها من المطالب. وسرعان ما انفض العصيان بعد أن منعت عنهم الشرطة الطعام لمدة ثلاثة أيام وتدخل آباء الطلاب والمعنيين. لم تهدأ الأمور وظلت المعارك سجالاً بين الطلاب من جهة والسلطة من جهة أخرى. أشرك الطلاب بمهارة كبار الجماعة الصينية في قضيتهم، وفي 22 ـ 23

أيار اعتصم 2500 منهم في مدرسة تشونغ تشينغ الثانوية مرة أخرى، رافضين الخروج حتى يُستثنوا جميعاً من الخدمة الوطنية. ولم يتفرقوا إلا بعد ثلاثة أيام، بعد أن منعت الشرطة عنهم الطعام وحرضت أولياء أمرهم على إرغامهم على ذلك. واستمرت الأمور. طالب تلاميذ مدرسة تشونغ تشينغ بإعادة فتح المدارس، وهدد طلاب المدارس الثانوية بالاضراب عن الطعام، وفي 2 حزيران تجمع آلاف الطلاب من عدة مدارس متوسطة في (المدرسة الصينية الثانوية) للبدء بالتحشد أثناء العطل المفروضة. كان ذلك بمثابة تحد. تابعوا دروسهم في الصفوف وفي الحقول المكشوفة حيث قام الطلاب الكبار بتعليمهم الرياضيات، واللغة الإنكليزية والصينية والجغرافيا. وكان أهاليهم يجلبون لهم الطعام. كان ذلك أشبه بمخيم استراحة في عطلة منتصف العام منظمة ذاتياً.

أرسل الطلاب مزيداً من الالتماسات إلى الحاكم، دون أية استجابة. وعندما أُعيد فتح المدارس في 24 حزيران، فرضت إجراءات تنظيمية جديدة: من بينها أن المدرسين، والطلاب سيُمنعون من استخدام مباني المدارس من أجل نشاطات خارجية لا يجيزها القانون. ولكن هذه الأوامر كانت شكلية تنشر في الصحف فحسب، فهي لا يمكن أن تطبق لأن اللجان الإدارية والمديرين كانوا يخشون من النشاط السري المنظم في أوساط الأساتذة والطلاب. وفي 13 أيلول حزمت الحكومة أمرها وأعلنت أنها ستغلق أي مدرسة تخالف (نظام المدارس). وسوف يُسأل المشرفون على المدارس من الآن فصاعداً ما إذا كانت الأشهر الستة المنصرمة قد استُغلّت للأغراض السياسية. ولكن هذه الإجراءات كانت خطأ كبيراً كما أحدثت شرخاً بين الشيوعيين وغير الشيوعيين من الصينيين. ووجد الطلاب بذلك مناسبة لتنظيم مظاهرات معادية للحكومة. وفي 12 تشرين الأول (أكتوبر) تجمهر عدد كبير منهم في منطقة (بادانغ) خارج (المحكمة العليا)، ووفقاً لما ذكرته صحيفة (سنغافورة ستاندارد) هبّت عاصفة من التصفيق عندما وصل بريت أحد زعماء الطلاب.

أستطيع القول إنه من خلال المحاكمات ما بين السلطة والطلاب الصينيين، والتي أُتيح لي الاطلاع على كثير من تفاصيلها، استطعت أن أدخل عالم المثقفين بالثقافة الصينية أو المتحدثين بها. كان عالمهم مليئاً بالحيوية وبالنشاط الفاعلين، ومن بينهم كثير من الشباب المثاليين، غير الأنانيين، والمستعدين للتضحية بكل شيء من أجل مجتمع أفضل. كنت شديد التأثر بإخلاصهم الكامل لقضية الثورة، وتصميمهم الجماعي على الإطاحة بالحكومة الاستعمارية من أجل بناء عالم جديد من المساواة والعدل. وكنت أزداد خوفاً من الاتجاه الذي يدفعني إليه زعماؤهم. ولكنني كنت مقتنعاً أيضاً أنني إذا لم أستطع أن أُسخّر بعض هؤلاء الشباب الديناميكيين لقضيتنا التي كنت أناضل من أجلها أنا ورفاقي فإننا لن ننجح أبداً. حتى الآن كان لدينا صلات مع ذوي الثقافة الإنكليزية والمالاويين فقط ممن لم يكن لديهم القناعات أو الحوافز على المواكبة، فضلاً عن الرغبة في مقاومة الشيوعيين ذوي الثقافة الصينية. كان الذين يتحدثون الصينية فقط في شبكتنا مجموعات صغيرة ممن يعملون في القاعدة البحرية والميناء، معظمهم من عمال كانتون المهرة، بالإضافة إلى بعض العمال المالاويين. وأما الاتحاد الوحيد الذي كان أعضاؤه جميعاً من المتحدثين بالصينية هو اتحاد (المجلس البلدي) الذين كانت مهمتهم جمع القمامة. لم يكونوا من المتعلمين جيداً ولم ينظروا إلي على أنني رجل ثوري.

لا بد أن الطلاب قد أُبلغوا بأن ينظروا إلي على أنني محاميهم، بعد أن كانوا قد استخدموا آخرين ممن لم يكونوا مُسيّسين جداً ولا راغبين في مجابهة الحكومة كما كنت أفعل، كانوا يجوبون في شارع أوكسلي بحثاً عن مشورة حول العديد من المشكلات التي تواجههم في مجابهة السلطة، أو السعي للحصول على إذن لعقد اجتماعات عامة. كانوا يأتون عادة في سيارة شيفروليه وردية اللون تحمل الرقم 1066. وواحدة من طالبات المدارس ذات ضفيرة كانت تستخدم سيارة والدها، الذي ربما كان تاجراً أو صاحب متجر غني.

فلم أكن أردهم خائبين أبداً، مهما كان الوقت حرجاً. كنت أريد أن أغوص في ذلك الحوض، حيث يتربى السمك على يد الشيوعيين حتى أتمكن من رمي الصنارة والخيط لألتقط أكبر عدد ممكن. فهم أولاً وأخيراً كانوا يصطادون في بركتنا الإنكليزية، وقد اصطادوا جون ايبر، وشارما، وديفين نير، وصمد وغيرهم. كنت ساذجاً، أشبه بشرطي صغير تطوع في منطقة «مافيا» خطيرة. ثم عرفت بعد ذلك عن يقين أن النظام والطاقة الحيوية لدى الطلاب وولاءهم لزعمائهم من الأمور الطبيعية والطوعية الناجمة عن حماسة الشباب ومثاليتهم. فقد احتجت إلى سنتين أي ما بين 1954 و1956 حتى أسبر أغوار أساليبهم، وأطلع على حيلهم و انحرافاتهم ولأفهم ديناميكية «الجبهة الشيوعية الموحدة» (CUF). خلف الستار كانت اللجنة المجهولة للحزب الشيوعي المالاوي MCP في المدينة تتحكم بالعاملين في الجبهة المفتوحة من أمثال روبرت سون لوه بون ورؤساء الأقسام ذات الطابع الجماهيري. كان لدى الشيوعيين شبكة سرية من الكوادر المنظمة تضم أربع خلايا، ولكل واحدة منها رئيس يعطي الأوامر والتوجيهات (والتي تبدو وكأنها نتيجة لمناقشة ديمقراطية) والذي يتلقى بدوره الأوامر من رئيس خلية أخرى ذات مستوى أعلى.

هذه الأوامر لم تكن تطاع عند خطر العزلة والتهميش لأولئك المهمّشين، أو المعاقبين الذين كانوا أعضاء في «عصبة معاداة البريطانيين» أو حزب MCP، وكذلك في حالة الاغتيال إذا ما ارتكب أي عضو عملاً من أعمال الخيانة. كان نظاماً صارماً لا يُجدي معه سجل التضحيات السابق، ولا يوضح ذلك إلا ما علمتني إياه قضية «ليويت فن».

انضم ليو إلى الحزب الشيوعي في المالايو عام 1942 وعمل ضد اليابانيين في نيجري سيمبليان في الفوج الثاني في الجيش المالاوي الشعبي المعادي للجيش الياباني MPAJA وقد أصبح بعد الحرب ممثلاً للحزب الشيوعي المالاوي MCP في المالايو للاتصال مع السلطات، وناشراً لجريدة الحزب "مين تشينغ بو". وقبل

إعلان حالة الطوارئ في عام 1948 بقليل، اتُهم بالتحريض على العصيان وحكم عليه بالسجن 18 شهراً. وفي تشرين الأول 1948 عندما اقتربت فترة نهاية سجنه صدر أمر باحتجازه ثانية وتكرر ذلك ثلاث مرات حتى عام 1955.

طلب مني أصدقاؤه أن أمثله في المراجعة القضائية لقضيته، وقابلت ليو في سجن جوهور باهرو، ووجدته رجلاً من أذكى الشيوعيين وأكثرهم تصميماً وفصاحة. أراد أن يُنفى إلى الصين (أو إلى جامايكا حيث ولد) ولكن لم يكن بمقدوري أن أساعده كثيراً بموجب القانون. لذا قررت أن أستخدم التهديد باستصدار أمر قضائي بالتحقيق في قانونية سجنه. الأمر الذي من شأنه أن يولد تعاطفاً معه. كان ذلك بعد ستة أشهر من إنجاز قضية د.ن.بريت في قضية «فاجار»، وبعد أربعة أشهر من قضية الدفاع عن الطلاب الصينيين، لذا أخذ تهديدي على محمل الجد. وفي رسالة مؤرخة بتاريخ 11 تموز 1955 وموجهة إلى قيادة شرطة كولا لامبور، أوضح لي مدير الفرع الخاص في سنغافورة: «إذا لم ينجح الأمر القضائي في التحقيق بسجنه، ستُعرف الحقائق من خلال صحافة العالم، وستشرع بكين بالاهتمام بهذه القضية الخاصة بأحد مواطنيها». في غضون ثلاثة شهور أبعد البريطانيون ليو إلى الصين. وكانت الأزمة النهائية قادمة. فمثل شأن كثير من الشيوعيين فقد التهمته ثورته. فأثناء «الثورة الثقافية» طرده تشين بينغ، زعيم الحزب الشيوعي المالاوي MCP، من الحزب، ومات مكللاً بخيبة الأمل والخزي. لقد كان شهيد الجانبين.

ولكن في عام 1954 كنت ما أزال جاهلاً بالطبيعة الحقيقية للخصم الشيوعي. ولم أرتدع. كنت أعتقد أنني ألتقي بأحد من غير الملتزمين من ذوي العقول المفتوحة ممن يرون في شيوعية ماو الملهمة أنها لن تنجح أبداً في مالايو. كان عليّ أن أتعلم الكثير.

10. حزب العمل الشعبي

كانت تشو في صباح يوم من عام 1954 تقف على شرفة منزلنا مع ابننا لونغ، الذي أتم السنتين، عندما ظهر شخصان على عتبة الباب في شارع أوكسلي 38 وقد جاء حضورهما بعد أسبوعين من لقائي ببعض الطلاب من الناطقين باللغة الصينية، حيث أبديت رغبة في لقاء الحركة النقابية الصينية. فدخلت إلى غرفة الجلوس للترحيب بهما. وعلمت أنهما ينتميان إلى نقابة عمال النقل في سنغافورة. كانا رجلين لطيفين ولكنهما لا يتحدثان الإنكليزية جيداً، فأحضرا معهما روبرت سون لوه بون كمترجم. كان اسماهما ليم تشين سيونغ، وفونغ سوي سوان. وكنت قد أجريت اتصالين مع اثنين من نشطاء الحركة العمالية من ذوي الثقافة الصينية، وكنت أسعى إلى اجتذابهم لقضية مالايو الديمقراطية الاشتراكية غير شيوعية.

بدا لي ليم وفونغ نموذجين ملائمين، فهما يتمتعان بسلوك مهذب وجلد، وبساطة في اللباس. كان اهتمام الاثنين واستعدادهما مكتوباً على قسمات وجهيهما وفي كل حركة من حركاتهما.

كانا على النقيض من تلك الشخصيات الضحلة التي التقيت بها مع زملائي في وقت سابق في شقة ديفيد مارشال، الذي كان يبحث مع ليم يوهوك من حزب العمل في تشكيل مجموعة سياسية جديدة تنبثق فيما بعد كجبهة عمل. كان هذا اللقاء جزءاً من استطلاعنا لتقدير مدى الإمكانات المتوفرة لديهما. ولكن وجدنا إنه كان من الصعب أخذ مارشال على محمل الجد فهذا اليهودي الشرقي له شخصية زئبقية متلونة، وهو أحد كبار محامي الطبقة الإجرامية في سنغافورة. في هذا الاجتماع غالباً ما كان صعباً علينا منع أنفسنا من الضحك عندما كان يقترح آراء يعتقد أنها صائبة. فعلاقته بالوعي السياسي كانت سطحية، رغم أنه

يحب أن يكون مركزاً للاهتمام. ويرى نفسه فتىً أولاً. في الوقت نفسه لم يكن يستطيع السيطرة على جموح نزقه، وحدث أن استشاط غضباً عندما ضحكنا لتعليق سخيف قاله، فانتفض خارجاً من الغرفة ومن ثم خرج من شقته وتركنا فيها. إذ وجدنا أنفسنا مع رفاقه وكثير من الطعام والشراب.

تمازحنا و أكلنا وشربنا، ومن ثم شكرنا الخادمة وغادرنا المنزل. وبعد اللقاء الثالث معه قررنا أن نتائج تعاوننا مع هؤلاء الناس ستكون كارثية بالتأكيد. ما كنا نبحث عنه كان نوعية أخرى من الرجال الذين نثق بأنهم قادرون على إكمال الشوط معنا إلى الآخر. رجال يتمتعون برباطة الجأش التي تتفهم الانتصارات وتتغلب على النكسات التي تعترض تحقيق الأهداف في العمل السياسي. فعلى النقيض من مارشال وجماعته وجدت ليم تشين سيونغ وفونغ سوي سوان. وقد أعجبني ما رأيته فيهما. كانا من ذوي التعليم الصيني، ويمكن مقارنتهما بجماعة «الفاجار» الذين أدينوا بتهمة إثارة القلاقل، إلا أنهما يتميزان عن هذه الجماعة بأنهما أكثر تصميماً، وأكثر غَيْريّة وجدية، وأكثر تأثيراً. كانا بالضبط من نوع القادة الذين كنا نبحث عنهم، وكنت أتمنى دائماً أن نحظى برجال من هذا النوع.

شرحت لهما خططي في تأسيس حزب يمثل العمال والمنبوذين، لاسيما ذوي الثقافة الصينية. ليس هدف الحزب اكتساح الانتخابات القادمة، بل كسب عدد كاف من المقاعد تمكننا من كشف طبيعة النظام الفاسد، والأحزاب السياسية القائمة، وإعداد الحزب لجولات قادمة. لكنهما لم يعطياني جواباً نهائياً، ولتجربتي مع طلاب المدارس الصينية لم أكن مندهشاً.

كنت أعلم أن التزامهما بقرار جوهري مثل هذا يُوجب عليهما العودة إلى من هو أعلى منهما أو إلى الجهة التي أرسلتهما كي يخضع ما ينقلانه إلى الدراسة والتقدير، وبالطبع إلى حوار جدي سيؤدي بالنتيجة إلى التخلي عن الخط المالئ للحزب الشيوعي المالاوي. وبعد أسبوعين عادا إلي ومعهما مترجم آخر. والجواب

كان نعم أي هنالك استعداد للانضمام إليّ ليس من أجل السلطة ولكن من أجل فضح النظام الاستعماري، وفضح القصور الموجود في دستور راندال المقترح وللانقضاض على الأحزاب التي ستتولى السلطة.

قررنا إطلاق حزبنا «حزب العمل الشعبي» في اجتماع عام يوم 21 تشرين الثاني (نوفمبر) 1954، ورغبت في أن يكون الرجلان كلاهما في قيادة الاجتماع. تهامسا فيما بينهما وقالا: إن هذا الأمر يستحق المناقشة. وفي الزيارة التالية قالا: إن فونغ، سكرتير نقابة عمال النقل في سنغافورة، سيكون في قيادة الاجتماع، وسيبقى ليم تشين سيونغ خارجاً في الوقت الحاضر. لم أعرف أسبابهما، ولكن افترضت أن فونغ هو الأقل أهمية، والأقل عرضة للخطر الأمني، بحيث لن يجد الفرع الخاص آثاراً وسجلات كثيرة له يمكنه تعقبها عند ظهور اسمه في الصحف.

لكني كنت راضياً. مع وجود فونغ في الفريق نفسه، إذ أحسست أن الحزب الجديد سوف يتمتع بقاعدة عمالية عريضة وواضحة. فإلى جانبنا يقف الآن ذوو التعليم الإنكليزي، والعمال الملاويون من أصحاب الياقات البيضاء والزرقاء. ومعنا أيضاً الجمعيات الصينية المتعددة، والغرف التجارية إلى جانب العمال أصحاب الياقات الزرقاء. ولم نرغب بالتعامل مع طلاب المراحل المتوسطة. لأن أي حزب سياسي في المجتمع السنغافوري المتعدد عليه أن يفهم أن أي اقتراب له من شريحة في المجتمع سوف يثير الخوف والمعارضة من جانب الشرائح الأخرى، ولهذا السبب لم تكن الأحزاب القائمة ذات وزن حقيقي. وسيؤدي التقارب مع الطلاب إلى ابتعاد الطبقتين. أصحاب التعليم الانكليزي، وأصحاب التعليم المالاوي، واللتين تشكلان أربعين في المئة من عدد السكان.

في تشرين الأول (أكتوبر) أعلنّا تأسيس الحزب. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) تعاهدنا على أننا سوف نقاتل من أجل «مجلس تشريعي متعدد اللغات مع الترجمة الفورية، لأن أعضاء المجلس بدون ذلك لن يكون لديهم أدنى فكرة عن السكان الصينيين، ولا عن تفكيرهم وشعورهم، وبالطبع لن يكون هذا وضعاً صحياً بأي حال" وقد حَذتْ بقية الأحزاب السياسية حذونا في هذا المطلب.

أول لجنة مركزية تنفيذية «لحزب العمل الشعبي»، في شهر تشرين الثاني 1954، في الصف الخلفي من اليسار: تان دي كينغ، ديفان نير، س. سوكالينغام، لي كيوان يو، أونغ إينغ غوان، فونغ سوي سوان. في الصف الأمامي: لي جينغ سينغ، موفرادي بن حاجي مهد نور، توه تشين تشي، إسماعيل رحيم، شان تشيو تور.

ولكي نتمكن من إيجاد التوازن بين سمعة الحزب الراديكالية وبين الخلفية اليسارية لبعض قادته، قمت بإقناع تنكو عبد الرحمن، الذي كان زعيم «منظمة الاتحاد الوطني المالاوي»، وعضو المجلس التنفيذي في المالايو، وكذلك السيد تشينغ لوك تان، رئيس الجمعية الصينية المالاوية ليتحدثا في حفل افتتاح الحزب. كنت قد قابلت تان في مآدب عشاء متعددة. وكان تنكو قد استشارني في مكتبي عندما أراد مقاضاة صحيفة في سنغافورة بتهمة التشهير. فيما بعد قمت بدعوته مع زعماء «الاتحاد الوطني المالاوي» إلى حفل عشاء في منزلي. والآن في حفل إطلاق «حزب العمل الشعبي» يقف معي اثنان من زعماء الملايو المحترمين، وذلك لعلاقتهما الشخصية بي، ولربما أيضاً أنهما اعتقدا أنني يمكن أن أكون حليفاً نافعاً في المستقبل. وعلى الرغم من أن تنكو لم يكن يرغب أن أدخل السياسة في الاتحاد، فإن تان أراد ذلك. هذا الفارق الجوهري في موقفهما عكس رؤيتيهما المتناقضتين،في المصالح الانتخابية.

تنكو أراد أن يبقى الصينيون متفرقين إن أمكن في جيوب صغيرة، ومبعثرين بحيث يسهل على المالاويين التعامل معهم. أما تان فقد كان يريد فريقاً من الشباب باستطاعته توحيد المجتمع الصيني. وكانت «الجمعية الصينية المالاوية» متحمسة لأن تنضم سنغافورة إلى الاتحاد بحيث يؤدي ذلك إلى ازدياد قوتها الانتخابية. بدأنا اجتماعنا في الساعة العاشرة من صباح الأحد21 تشرين الثاني (نوفمبر) في قاعة فكتوريا التذكارية، ودام اجتماعنا حتى الواحدة ظهراً، حيث توقفنا لكون القاعة محجوزة بعد ظهر ذلك اليوم لإقامة حفل فيها. كان صباحاً حاراً ودبقاً. فقد امتلأت القاعة. ولكن لا أستطيع القول إنها كانت مزدحمة ولكن الجميع كان يجلس على المقاعد الخشبية والخيزرانية. قالت صحيفة «سينغابور ستاندور» إن عدد الحضور كان 1500 شخص، وذكرت «سترايت تايمز» أن عددهم كان 800 شخص. لم يكن هذا الحفل متميزاً بشيء، فأنصارنا من أعضاء النقابات احتلوا ما يقارب ثلثي المقاعد، أما الباقون فكانوا مراقبين من الأحزاب

السياسية الأخرى ومن مستقلين مهتمين بالموضوع. قرأنا خطابات مكتوبة، بسيطة في تركيبها، ليس فيها الكثير من التنميق وفن الخطابة. وارتدينا قمصاناً مفتوحة عند العنق، وارتدى تشينغ لوك تان بذة رسمية، أما تنكو فقد ارتدى الثياب المالاوية التقليدية الفخمة المغلقة عند العنق بالحرير، والسروال العريض والإزار التجميلي القصير حول الخصر.

لم يكن حفل الانطلاق لاهباً وحماسياً، ولكنه كان جيداً. فقد أعلنا عن تأسيس الحزب رسمياً، وحصلنا على إطراء جيد من الصحافة، وأصبحنا معروفين على المستوى العام ويمكن الآن التعامل معنا بشكل جدي. لم يكن هناك قصاصات ملونة ولا تزويقات خطابية، ولا بالونات ولم يطلق الحمام في سماء الاحتفال. إنما كنا مستعدين ليوم الترشيح الذي سيكون في 28 شباط (فبراير) وبينما سيكون يوم الاقتراع هو الثاني من نيسان (ابريل) 1955. وبعد نقاش مستفيض تم انتقاء خمسة مرشحين: فلمركز بوكيت تيماه اختير ليم تشن سيونغ، ولمركز فارار بارك اختير ديفان ناير (لم يكن ديفان خياري المفضل، ولكنه كان تنازلاً لإرضاء أصحاب الميول الشيوعية). واختير لمقاطعة بونغول- تامبينز المرشح جوه تشيو تشوا (وهو متعهد في الستين من عمره، صديق لكيني يعيش في بونغول وهو معروف كونه من أبناء المنطقة) ولمنطقة تانجونغ باجار تم اختياري. ولما كان فونغ سو سوان من أبناء منطقة جوهار وانتصاره سيكون صعباً في سيمبا وانغ فقد تم اختيار أحمد إبراهيم كمرشح مستقل في تلك المنطقة التي تتواجد فيها القاعدة البحرية حيث يستطيع كسب العمال المالاويين والهنود، وسيظهر كأنه بعيد عن حزب العمل الشعبي. وبالتالي بعيداً عن صفة الراديكالية.

التنظيم الحزبي كان ضعيفاً. بالأحرى لم يكن موجوداً. ليس هناك كادر متفرغ، ولا توجد فروع للحزب أو زعامات شعبية محلية. وكان علينا الاستعانة بالنقابات وطلاب المراحل المتوسطة الصينية من أجل المساعدة في الانتخابات

المقبلة. ولكن ما إن ابتدأت الحملة الانتخابية حتى انطلق مرشحونا كل في مسار منفرد. باستثناء الجولات التي يقوم بها خطباء معروفون مثلي على الدوائر الانتخابية الخمسة لمخاطبة الجماهير.

في يوم الترشيح كان خصماي في مركز تانجونغ باجار ـ أحدهما من ذوي الثقافة الصينية والآخر إنكليزي الثقافة ـ يعترضان على ترشيحي لأني لم أكن من سكان سنغافورة لمدة سبع سنوات من أصل السنوات العشر الأخيرة، كما تتطلب تعليمات المجلس المستندة إلى رأي هيئة المحكمة الاستشارية الخاصة بالانتخابات استناداً إلى دستور راندل. ولكن ظهر أن هذا المطلب كان به ثغرة هامة، وهي أن سنغافورة كانت مستعمرة منفصلة لمدة ثماني سنوات وأحد عشر شهراً ـ قبل نيسان (ابريل) 1946 كانت جزءاً من مستوطنات المضيق.

وقام بعض أصحاب الميول البريطانية بكتابة رسالة إلى صحيفة (ستريتس تايمز) هددوا فيها باتخاذ ما يلزم لعرقلة تسميتي في المجلس في حال نجاحي. لكن الهيئة المسؤولة أقرت ترشيحي ونصحت خصومي بتقديم اعتراضهم القائم على خلفية مدة إقامتي في التماس انتخابي إن تمت عودتي.

أخبرت كينغ سوي بما حدث، وبعد عودته إلى لندن. قام بدوره بإعلام وزير الشؤون البرلمانية في حزب العمال ستانلي أوبري بالموضوع، وقام أوبري بدوره بتقديم استجواب في مجلس العموم البريطاني في الأول من آذار (مارس) رد عليه هنري هوبكنسون وزير الدولة لشؤون المستعمرات كما يلي:

«إن الطلاب المالاويين الذين كانوا في بريطانيا العظمى خلال المرحلة التي تخولهم حق دخول الانتخابات لدى عودتهم إلى بلادهم مؤهلون لذلك، ما لم يكونوا فاقدي الأهلية لأسباب أخرى. ويسمح لهم بالمشاركة طالما كانوا خلال غيبتهم يعتبرون الاتحاد هو وطنهم. وبالقطع يجب معاملتهم على أنهم مستكملون لشروط التقدم للانتخابات».

بدا هذا الإعلان وكأنه موجّه إلى الطلبة المالاويين الذين كانوا يعارضونني، مما أدى إلى إسقاط قضيتهم. فقد علموا أن لندن سوف تتخذ إجراءات، عندما تجد أن عليها وضع الأمور في نصابها. ولتحاشي جلبة سياسية ضارة نتيجة تعليمات كانت عبثيتها واضحة. كما ذكرت في حينه إن كان جون إدي الذي ولد وعاش في بريطانيا مؤهلاً لخوض الانتخابات لسكنه في سنغافورة لمدة سبع سنوات، بينما أنا مولود في سنغافورة وأمضيت حياتي فيها باستثناء أربع سنوات قضيتها في بريطانيا لست مؤهلاً. إذن لا بد أن يكون العالم مربع الشكل، وليس كروياً.

تلك كانت العقبة الأولى التي استطعت تجاوزها. كما عانيت من حرج علني عندما أعلنت الصحف أن لام تيان منافسي ذا التعليم الصيني في الحزب الديمقراطي قد قال: إني لا أستطيع قراءة وكتابة اللغة الصينية. وبذا أكون غير قادر على تمثيل الناخبين الصينيين. رددت عليه بالأسلوب نفسه «منطقياً، طالما أن السيد لام تيان لا يستطيع قراءة وكتابة لغة التاميل واللغة المالاوية، فهذا يعني أنه لا يستطيع التطلع لتمثيل السكان الهنود والسكان المالاويين في مقاطعة تانجونغ باجار». وأعلنت بكل أريحية أنني أستطيع قراءة وكتابة لغة الماندرين، والهاكا والهوكين، كما أستطيع أيضاً التحدث باللغة المالاوية. تصريحي هذا لم يكن دقيقاً وعلى الأصح كان ضمن الدعاية الانتخابية. بعض المراسلين الصينيين نصحوني بأنه من الأفضل لي ألا أعلن عن عدم تمكني من لغتي الأم، وتذكرت نادماً عدم التفاتي لنصيحة جدتي بتعلم اللغة الصينية في مدرسة" تشون جوان". والآن أتت هذه المبالغة والادعاء بمهارتي اللغوية. صحيح أنني كنت قادراً على كتابة بعض العبارات ولكني نسيت معظم مفرداتي لعدم استعمالها منذ تركت عملي مع شيمودا وشركته عام 1943. إذن فإمكانياتي اللغوية في الهاكا والهوكين كانت بائسة، تستدعي الرثاء إذ بالكاد أعرف قليلها. وأخذت عهداً على نفسي بتعلم اللغة وتجاوز تجاهلي الماضي لها.

تحداني لام تيان إلى مناظرة علنية في منطقة كريتا آير والتي يتحدث سكانها اللغة الكانتونية والتابعة لمنطقة تانجونغ باجار. تحديت خصمي وشننت هجوماً معاكساً قلت فيه: إنه لكي تجري الأمور بشكل صحيح، ومن أجل أن تكون تأدية الواجب في المجلس التشريعي وفي الحكومة مثمرة، على المرشح أن يكون متمكناً من اللغة الإنكليزية لكي يستطيع القيام بواجبه بشكل فعال. ولكن في اجتماع شعبي آخر انعقد في باندا ستريت وهو حي كانتوني استطعت، بعد جهد كبير، أن أقول بعض الكلمات باللغة الكانتونية. ذلك تمّ بعد أن قدم لي جك ثونغ وهو صحفي صديق يعمل في صحيفة"سين باو»، فقرتين مكتوبتين. أمضيت ساعات عديدة أتدرب على قراءتها والنطق بها تحت إشرافه، لأؤديها خلال ثلاث دقائق فقط. وما كان من الجماهير إلا أن ظاهرتني وحيتني على جهدي.

أما مشاكلي لم تنتهِ عند هذا الحد. فالنقابات اليسارية المتحدثة بالصينية وكذلك طلاب المراحل المتوسطة ركزوا جهودهم جميعاً لإنجاح ليم تشين سيونغ في بوكيت تيما وديفان نير في فارار بارك، لكنهم لم يفعلوا شيئاً من أجلي ومن أجل مرشحي حزبنا الآخرين. لو كانت لدي في السابق أية شكوك عن الجهة التي أعطتهم هذه الأوامر فقد تبدت الآن بعد تجربتي هذه. لقد اندمجنا بسبب المصلحة المشتركة. أرادوا إنجاح عضوين منهم وأرادوا أن أكون غطاءً نافعاً لهما. لم أسمح لنفسي فيما بعد بنسيان ذلك. كان علي التحدث في جولة انتخابية لصالح ليم، وأخرى لصالح نير، ولكن في الواقع لم يكن قلبي راضياً عن ذلك. قمت بالجولتين في سيمبا وانغ وكنت مع أحمد إبراهيم النقابي من القاعدة البحرية، وفي بونغول تامبينز مع جون تشو تشوا. العجوز الذي اتضح لي أنه كان خطيباً مفوهاً باللغة الهوكينية وقد كان ناجحاً في خطابه. لم تكن هذه الحملة تشبه بأي حال من الأحوال حملة عام 1951 عندما كنت وكيلاً انتخابياً للايكوك في كانتونغ. تلك الحملة كانت مهمة بسيطة تخللها شرب الشاي وحفلات العشاء.

كان هناك 48000 ناخب مسجل من أصل 1.8 مليون مواطن. أما في عام 1955 ومع التسجيل الآلي لمواليد سنغافورة فقد كان هناك 300,000 ناخب. أي ما يقارب 60% منهم من الناطقين بالصينية. بالإضافة إلى أن الشيوعيين والمتعاطفين معهم قرروا خوض هذه المهمة لأول مرة منذ إعلان نظام الطوارئ. إذن فالجو العام كان مختلفاً جداً، واللغة الأساسية كانت اللهجات الصينية، ولغة السوق المالاوية التي كانت تصل إلى أوسع الشرائح السكانية، وفي النهاية اللغة الإنكليزية التي كانت تصل إلى شرائح أضيق ـ الطبقة العليا من المجتمع السنغافوري الذي كان أقرب إلى تيارات السلطة، ولكن تأثيره الانتخابي كان محدوداً. امتلأت الشوارع بالحشود الانتخابية وعُقدت الاجتماعات في الساحات العامة، ووقف الخطباء على ظهور الشاحنات الكبيرة والصغيرة حاملين مكبرات الصوت، بينما أحاطت بهم مصابيح الإنارة من كل جانب. استطاعوا استقطاب حشود كبيرة سادها المتحدثون بالصينية والمالاوية. أما لعبة قاعات الاستقبال السياسية الهادئة والرصينة لعام 1951 أصبحت شيئاً من الماضي.

اكتسبتُ تجربة غنية من خلال تجييشي للأصوات في المعركة الانتخابية. تعتبر منطقة تانجونغ باجار عاصمة أحواض السفن في سنغافورة، حيث تجد عمال أحواض السفن والباعة وأصحاب المتاجر يُؤَمنون المؤن والحاجات الضرورية، إلى جانب جحور الأفيون. كنت قد زرتُ أماكن مثل منطقة ميناء سنغافورة بشكل يومي لكسب المالاويين الموجودين في ناحية "طريق التوبة" حيث يعيش الناس في بيوت خشبية بدون مجارٍ، ناهيك عن الصرف الصحي، وحيث رائحة العفن والروائح الخبيثة هي الطاغية. كنت أشعر بالغثيان في كل مرة أدخل فيها هذه المنطقة. وفي داخل هذه البيوت كان زعماء هؤلاء السكان يمسكون بشبكة من الخيوط تعمل على جعل المجتمع المالاوي ضمن شبكة اجتماعية متقاربة. تعرفت هناك على زعيم «الاتحاد الوطني المالاوي». وخلال وقت قصير قام بتقديمي إلى مفاتيح بضع مئات من الأسر التي تعيش هناك، ووعدوني بمنح أصواتهم لي.

موقع آخر فاحت منه رائحة القذارة والتعفن، وهو عبارة عن صفوف عديدة من الحوانيت الوضيعة والمتهالكة في شارع «نارسيس» والأزقة المؤدية إليه في المنطقة التي يوجد فيها الآن تانجونغ باجار بلازا. لم يطل هذه البيوت أي إصلاح خلال سنوات، فمصارف المياه تسدها أكوام القمامة التي رماها الباعة الجوّالون المنتشرون على جانب الشارع حيث تتفسخ بقايا الطعام وينتشر النتن في كل مكان. جرذان هائلة الحجم تدخل وتخرج من هذه المصارف بكل جرأة واستخفاف بالقطط المحيطة. مرة أخرى انتابني الغثيان. وعندما عدت إلى المنزل لم يكن غسل يدي شيئاً كافياً. فقبل أن أجلس إلى العشاء كان علي أن أستحم وأن أبدل ثيابي جميعها.

الموضوع الأكبر والأوحد الذي استرعى اهتمام الناطقين بالصينية هو الثقافة الصينية، والحاجة إلى الحفاظ على التقاليد الصينية من خلال المدارس الصينية. ولم يكن هذا الموضوع موضوعاً بروليتارياً. بل كان بكل بساطة ووضوح رمزاً للتعصب القومي. ولكن الشيوعيين أدركوا أنه ورقة جماهيرية رابحة تمس شغاف قلوب الصينيين، وقد عملوا عليها بكل اجتهاد. ففي انتخابات المجالس التشريعية السابقة كان الخطباء يؤدون خطاباتهم بفتور وضعف وبصوت خافت دون إحساس أو اقتناع. وغالباً ما كانت تؤدّى باللغة الإنكليزية، وفي أحيان أقل بالملاوية، وفي بعض المرات تتم ترجمتها إلى اللهجات الصينية المختلفة. أما هذه المرة فقد انطلق الخطباء ـ الدعاة الصينيون ـ بكل قوة، يخطبون باللهجات الصينية: الهوكين والكانتونية، والتيوتشو، وبالحق كانوا مؤججين بارعين لمشاعر مستمعيهم. إذ تمكنوا من ذلك بعبارات بليغة طيعة سلسة، فقد استعاروا الأقوال والحكم المأثورة، واستندوا إلى الاستعارات المجازية والأساطير التقليدية ووظفوها في الحديث عن الأوضاع الحاضرة. فالحرارة التي تحدثوا بها انعكست على مشاعر مستمعيهم وأيقظت مشاعر الافتخار بالعظمة الصينية التي تفجرت عندهم. بعد الآن لن يعود صينيو سنغافورة إلى ما كانوا عليه بالأمس.

شخص واحد خرج من هذه الانتخابات كخطيب جماهيري مفوه. كان شاباً نحيلاً ذا طول معتدل، ووجه طفولي ناعم وصوت رنان ينساب بجمال من خلال لغته الوطنية. وتولهت الشابات به، ولاسيما صبايا اتحادات التجارة. أما مواضيع خطبه فضلاً عن الثقافة الصينية كانت أوضاع العمال المقهورين، والإمبريالية الشريرة، وأحكام الطوارئ التي داست على حقوق الجماهير. وحرية القول وحرية الجمعيات العامة. بعد انطلاقه الفاتر في أول اجتماعين جاء التصفيق الحاد كل مرة كان يتكلم بها. وبعد نهاية هذه الحملة كان ليم تشين سيونغ يعتبر ذا شخصية قادرة على سحر الجماهير، ومكانه في قلب الحياة السنغافورية، وهذا ما أثار قلقاً آنياً في أوساط حزب العمل الشعبي.

كما توجه إلى هذه المجاميع ضمن السباق ذاته فونغ سوي سوان ولكنه لم يكن يملك القدر نفسه من تأثير ليم عليهم. وهذا ما كان عاملاً سلبياً في الحملة. فقد كان على فونغ التحدث بالهوكينية حتى يصل صوته إلى أوسع الشرائح. إذ أن الهوكينيين شكلوا أوسع مجموعة صينية في سنغافورة وبالتالي أصبحت لهجتهم مفهومة من قبل الفئات الأخرى، ولكن فونغ كان من الهاكا، مثلي أنا. أما بالنسبة للهجة الماندرين التي كانت تصل فقط لمن هم تحت سن الخامسة والثلاثين من مرتادي المدارس الصينية. كنت متحمساً لتعلمها، ولكن بعد هذه الانتخابات أدركت أنني حتى ولو تمكنت منها فلن يكون ذلك كافياً، وكنت قد أقلعت عن فكرة تعلم الهوكينية أيضاً. أما اللغة الأخرى التي كان يمكن أن تصل إلى جمهور كبير كانت لغة السوق المالاوية "مالاوي بازار" هذه اللغة كانت خليطاً من لغات مختلفة مع قواعد بسيطة، ولكنها كانت مفهومة من قبل جميع الأعراق. وكانت الأسلوب الوحيد للتعامل التجاري مع المالاويين والهنود. ولكن بما أنها كانت لغة محدودة فكان صعباً قيادة الجماهير من خلالها. فالبلاغة تحتاج إلى أجنحة تطير بها.

المذهل في هذه الانتخابات هو الإمكانية الكبيرة بالاعتماد على الولاءات الشخصية. هؤلاء الذين أتوا للمساعدة فعلوا ذلك لأنهم أحسنوا الظن بي ورغبة منهم في إنجاحي. أقام ما يقارب العشرين من عمال البريد، بإمرة زعماء نقابتهم، ولعدة أيام مرهقة في شرفة منزلي الخارجية في أوكسلي رود (منزلي كان مركز قيادة الدوائر الانتخابية الأربعة التي دفع إليها حزب العمل الشعبي بمرشحيه) وذلك كي يعنوني بياني الانتخابي ليوزع على الناس. وساهم أيضاً نيابة عني موزعو البريد في تانجونغ باجار وداروا من بيت لبيت لتوزيع كُرّاساتي الدعائية. كما أن هيئات مثل جمعيات الباعة الجوالين، وباعة البسطات الصغيرة ساعدونا أيضاً. بعض أعضاء الجمعيات من باعة الدجاج والبط الحي كانوا ينوءون بحملهم الثقيل الموجود في سلاسل مثبتة إلى دراجاتهم، ومع حلول العام الجديد الصيني طلبت الرحمة من مسؤوليهم ليخففوا عنهم أحمالهم الثقيلة فالمهرجان الجديد هو أكبر أعياد التقويم القمري.

أكثر التنظيمات حماسة لي كانت هيئة مجتمع الهاكا، والهيئات الرافدة لها مثل الجمعية التي تضم أبناء مقاطعة أجدادي في البر الصيني الـ"دابو". فكثير من الناس الغرباء عني تماماً جاؤوا إلى أوكسلي رود مقدمين خدماتهم وكانوا من الهاكا الدابو (أحدهم كان يناديني بالعم مع أنه كان أكبر مني في السن) لم يفكر أحدٌ بمكافأة على عمله، وكل ما أرادوه هو مشاركتي بالنجاح والمجد. قام تشونغ مونغ سانغ وهو رئيس جمعية الهاكا في سنغافورة بتجنيد طاقات أعضاء جمعيته لصالحي كما ساعد في تأمين وسائط النقل اللازمة. كان أيضاً جاراً لي في أوكسلي رود، وهو يملك سلسلة من المَراهِن الناجحة في الملايو وسنغافورة (كثير من المَراهِن هذه كان يديرها أفراد من الهوكا). وكنت أيضاً المستشار القانوني الفخري لجمعيته. ولكون الهوكا أقلية مترابطة فقد أخلصوا في نصرة قضيتي. وسمحت لي الجمعية الصينية لباعة الكحول بالمفرق باستخدام مبناها في شارع بيرنام كمقر قيادة ثانٍ للمعركة الانتخابية.

تبرع كثير من الناس الذين لا أعرفهم بالمال، وأحضر آخرون لفافات الأقمشة البيضاء لصنع اللافتات ولم يكن عملهم هذا مقابل منفعة مادية أو خدمة متبادلة. على كل لم يكن لدي شيء أعطيه. بالمقابل جاءني اثنان فقط من «الفاجار»، الجناح اليساري ذي الخلفية التعليمية الإنكليزية، للمساعدة في كتابة العناوين على البيان الانتخابي.

واجهتنا مشكلة لوجستية كبيرة وهي إيجاد وسائط نقل المنتخبين لمراكز الاقتراع، بحيث يصوتون لمرشحينا، هذا الأسلوب ابتدعته الأحزاب الثرية المحابية للبريطانيين بسبب امتلاك أنصارها للسيارات. هنا اعتمدت على مختلف أنواع الاتصالات الشخصية لحل هذا الإشكال. فاتصلت بإخوتي وبعمتي، وجاري من الهاكا، وأصدقاء مثل هون سوي سن وأخيه. وقد قمت بتعيين دينس مسؤولاً عن تنظيم النقل يوم الانتخابات، وهي مهمة لا يحسد عليها، إذ كان عليه أولاً أن يضع أسس التنظيم، وآلية ترتيب السيارات وهو محاط بضجيج وضوضاء العربات المتجهة إلى أوكسلي رود من جميع أنحاء سنغافورة كما أن عليه مراجعة مقر القيادة الثاني الموجود في شارع بيرنام، وأخيراً التجوال في جميع أنحاء تانجونغ باجار لالتقاط المصوتين المشاركين. استطاع دينس إقناع بعض محطات الوقود باحترام توقيعه لاعتبارهم خدماتي السابقة لهم عندما كنت أعمل مع لايكوك وَاونغ. فالعلاقة الجيدة مع محطات الوقود كانت ضرورية لأن أصدقائي أعاروني سياراتهم وخزاناتها ملأى بالوقود، وعلي بالطبع أن أعيدها ملأى أيضاً، رغم أن ثمن الوقود كان يدفع من صناديق الانتخاب.

هذه الجهود لم تكن من أجلي فقط. وقد جاءني الوكلاء الانتخابيون لـ ليم تشن سيونغ وديفان ناير مطالبين بسيارات لحملتهما .وأصرّ شخص كريه من نقابة المعلمين اسمه كام سيو يي على أن أخصص ثلاثين سيارة لناير وحده. وبعد ثلاثة أسابيع من انتهاء الانتخابات وفي 21 نيسان (ابريل) كتبت تشو رسالة إلى

كينغ سو في إنجلترا اعترضها الفرع الخاص واستقرت ضمن ملفاته. كانت الرسالة توضح بجلاء السلوك الملتوي للنقابات والطلاب الصينيين في مسار الحملة الانتخابية وكذلك العلاقة مع المحرضين الانتخابيين ومشكلة السيارات.

«قام بمساعدة هاري المحرضون الانتخابيون والخطباء وكانوا جميعاً مندفعين ومخلصين، وفعالين في مساهمتهم، وكذلك كان سعاة البريد، والموظفون، وعمال المحال، والرجل الذي يدير مطعماً صغيراً في الشيناتاون، رئيس نقابة الطباعة، إلخ. قبل الأسبوع الأخير جاءنا ما يقارب العشرين من الشبان المشاكسين ليساعدوا في الحملة التحريضية، كانوا قد حضروا بين الساعة الثانية والساعة الخامسة بعد الظهر. أي عندما كان جميع الرجال يمارسون أعمالهم وغير موجودين في منازلهم، وهكذا لم يكن لمشاركتهم هذه أي تأثير يذكر. يمكنك مقارنة هذا مع المئات بل أكثر من الشبان الذين دفعهم لويس باتجاه فارير بارك طوال الشهر. في يوم الاقتراع جاء عدد من الصبية كي يساعدوا في تانجونغ باجار على حث الناس على الانتخاب، ولكن إن كان لديك أي شك في إخلاص هؤلاء الصبية ومؤازرتهم الحقيقية فإن هذه الانتخابات ستزيل كل الشكوك لديك.

«وفي صبحية يوم الاقتراع ارتكب ديفان خطأ بإيفاده كام إلى أوكسلي رود 38 لاستلام سيارات مخصصة لفارير بارك. فلجنة المواصلات لدينا كانت تعاني الأمرّين في تأمين سيارات (أكثر من مئة سيارة أعيرت لهاري) وإرسال هذه السيارات إلى بوكيت تيماه وفارير بارك، لأن أكثر الناس (أمثال جيراننا الهاكا) كانوا قد أعاروا سياراتهم إلى لي كوان يو شخصياً وليس لحزب العمل الشعبي. فكانوا يعارضون بشدة ذهاب السيارات إلى أي جهة باستثناء تانجونغ باجار. وعلى ذلك تم فرز السيارات بكل حذر. فتم إرسال بعض من لم يمانع في أن تذهب سيارته إلى المراكز الأخرى. عندما وصلت السيارات المخصصة

لفارير بارك كان الوقت قد أصبح متأخراً. ويأتي هذا الأحمق كام يطالب بكل وقاحة وصفاقة بالسيارات مرفقاً ذلك بأسلوب سوقي. من يحسب نفسه؟ فليذهب إلى الجحيم».

وفي يوم الانتخاب الثاني من نيسان (ابريل) 1955استطعت الفوز بـ6029 صوتاً مقابل 980 صوتاً و780 صوتاً على التوالي لمنافسيّ اللذين خسرا بالتالي مبلغ التأمين المودع. فزت بعدد كبير من الأصوات وأكثر مما ناله مرشح آخر بفارق كبير. وكنت مرتاحاً جداً لخسارتهما. لأنه بدون ناير لن يستطيع ليم لوحده أن يكون فعالاً بشكل كامل في مجلس تشريعي يتحدث باللغة الإنكليزية حصراً. ولما كان غير متمكن من اللغة الإنكليزية وبغياب ناير كعكازة لغوية، كان عليه أن يعتمد علي.

المفاجأة الكبرى في هذه الانتخابات كانت هزيمة الحزب التقدمي الذي كان يتوقع أن يشكل أكبر كتلة في المجلس. أما الجبهة العمالية فقد كسبت عشر مقاعد من بين سبعة عشر مرشحاً، ولدهشته الفائقة أصبح ديفيد مارشال الوزير الأول. فاز حزب العمل الشعبي بثلاث مقاعد من بين أربعة مرشحين. وفازت الأحزاب الصغيرة والمستقلون ببقية المقاعد الثمانية. إذن الحزب التقدمي فاز بأربع مقاعد من بين اثنين وعشرين مرشحاً، والحزب التقدمي فاز بمقعدين من بين عشرين مرشحاً، علماً بأن هذين الحزبين تمتعا بأفضل الإمكانات المادية والانتخابية. ما الذي حدث؟.

تأسس الحزب التقدمي في مطلع عام 1947 على يد مجموعة متقاربة (شلة) من أصحاب المهن ذوي التعليم الإنكليزي وبعض البريطانيين أمثال جون لايكوك ورفاقه هيمنتهم على الحزب الذي اكتسحه ذوو التعليم الصيني (الصينيون الأصلاء).

أما الحزب الديمقراطي فقد تأسس في آذار (مارس) 1955 بعد أن انتبهت غرفة التجارة الصينية إلى أن التسجيل الآلي الذي يتم وفق دستور راندل سوف يستقطب عدداً كبيراً من الناخبين الصينيين. يمكن القول إن هذين الحزبين

يمثلان الطبقتين الوسطى والعليا. واحد منهما يدور في فلك المؤسسة الاستعمارية البريطانية والثاني كان خارج هذه الدائرة السحرية، وأعضاؤه من الصينيين الميسورين العاملين في مجال الاستيراد والتصدير وتجارة المفرق، وأصحاب المحلات، والمصرفيون، وأقطاب تجارة المطاط والقصدير. كانوا زعماء المجموعات الصينية التقليدية، وهم أيضاً المشرفون على المدارس الصينية التي أنفقوا عليها وأداروها من خلال مجالس إدارتها، كما أنشأوا وأداروا المؤسسات الخيرية كالمستشفيات وغيرها من هيئات النفع العام. رأوا في هذه الانتخابات الفرصة السانحة التي ستنقلهم إلى قلب السلطة حيث يستطيعون من خلال ذلك توسيع دائرة أعمالهم. وأكثر من ذلك ظنوا أنهم يستطيعون تسخير طاقات طلاب المدارس المتوسطة الصينية لخدمة حزبهم لأن هؤلاء الطلاب كانوا من أبنائهم. وهم لا يبخلون بإظهار تعاطفهم مع قضية الطلاب وهي الدفاع عن التعليم الصيني.

أما الشرخ الثقافي بين الحزبين التقدمي والديمقراطي كان في العمق بحيث يصعب رأبه. وظهر هذا واضحاً في دوائر انتخابية كثيرة عندما ذهبت أصوات الجماعات اليمينية من متحدثي الإنكليزية والملاوية إلى الحزب التقدمي، بينما ذهب صوت اليمين المتحدث بالصينية لصالح الحزب الديمقراطي. فلو وحدوا جهودهم وعملوا معاً لكان باستطاعتهم الفوز بنصف أصوات المنتخبين البالغ عددهم160، 000 صوت (سبعة أضعاف عدد المصوتين في انتخابات 1951).

ما إن تأكدت قياداتهم من خسارتهم السباق حتى تسللت خارج مركز التعداد في قاعة فكتوريا التذكارية، واختفت تحت جنح الظلام. ما فاتهم أنه عند الخسارة يجب أن يقف المرء متحدياً، لا مبالياً، محافظاً على الروح المعنوية لدى المؤيدين والأنصار استعداداً للمعارك القادمة في يوم آخر. فالشيوعيون عرفوا ذلك ونحن أيضاً في حزب العمل الشعبي سرعان ما تعلمناه أيضاً. لكن الحزبين التقدمي والديمقراطي قد تحطما نهائياً تحت وطأة ضربات حملتنا المركزة

عليهما والتي سددناها بعنف في هذه الحملة. فقد وصنفنا الحزب التقدمي بأنه صنيعة من صنائع السلطة الاستعمارية، ووصنفنا الحزب الديمقراطي على أنه حزب الرأسماليين ومستغلي الشعب، والواقع أن هدفنا الرئيسي من هجومنا كان سلطة العرق الأبيض التي قلت عنها في بياني الانتخابي: (إن الدور الاستعماري البريطاني في الملايو هو المسبب الرئيس لكثير من الشرور الاجتماعية والاقتصادية في هذه البلاد).

انتقد السياسي الساذج مارشال حزب العمل الشعبي لكونه يغالي في المطالبة بالحكم المستقل الفوري: (يبدو أنهم قد ركزوا على معاداة البريطانيين والهجوم عليهم. لكن بياناتهم ضد البريطانيين لا مبرر لها). ربما كانت هذه هي المشاعر الحقيقية للمتحدثين بالإنكليزية أبناء الطبقة الوسطى وهذه المشاعر على تناقض كامل مع مشاعر الجماهير المتحدثة بالصينية.

كان للفونيكس بارك، وهي المقر العام للمندوب البريطاني، تقديراتها الاستخبارية حول الانتخابات، وقد اقتبست بعض فقرات من خطاب ألقيته خلال الحملة:

«إني حسب ما أرى، وخلافاً لهؤلاء الذين هم فوق سن الأربعين فإن جميع الصينيين يفخرون إلى أبعد الحدود بإنجازات حكومة ماوتسي تونغ. هذه الحكومة التي استطاعت خلال خمس سنوات تحويل الإدارة الفاسدة والبائدة إلى أخرى،استطاعت أن تجابه القدرة العسكرية الأمريكية الهائلة في كوريا وهي تستحق منا كل تقدير: إن الجنرال شاينغ وحكومة الكومنتانغ قد انتهوا ـ إلا بالنسبة لبعض المضلّلين المؤيدين له والذين يتحدثون عن إعادة غزو بلاد الصين الأصلية. لكنني أؤمن أنه ينمو في الملايو جيل من الصينيين من الذين وُلدوا وترعرعوا في هذا البلد، والذين تعلموا الثقافة الصينية وتقاليدها، ولكنهم في الواقع مالاويون في تطلعاتهم. إنهم يعتبرون الملايو وطنهم الوحيد، إنهم فخورون بالصين كما

يفخر الفرنسي بمقاطعة كيبك الكندية بفرنسا. بالطبع هناك من يظن أن بناء الأمة المالاوية شيء غير مجدٍ. هؤلاء هم الطلبة الشباب الذين يعودون إلى الصين ليندمجوا في تيار الحياة الصيني. أما من يبقى هنا فهم المالاويون وسيزدادون أكثر وأكثر مع مرور السنين».

ظنت الاستخبارات البريطانية أن كلماتي هذه تستحق الدراسة ليتمكنوا من فهم موقفي الحقيقي. وقبل ذلك وفي كانون الثاني (يناير) كان راجا قد تقدم بمشروع مسودة إلى الحزب وقمت بتبنيه وهو يقترح عفواً عاماً يطال الحزب الشيوعي المالاوي.

الاقتراح بدا للوهلة الأولى منطقياً ومعقولاً، ولكن تبين لي فيما بعد لدى مراجعته والتأمل فيه أنه كان ساذجاً وغير عملي. يقول الاقتراح: «تبيّن أنه خلال الست سنوات ونصف السنة التي مضت، أن نظام الطوارئ في هذه البلاد إنما هو في جوهره موضوع سياسي وليس عسكرياً». وكلما أسرعنا في إنهاء العمل به كلما استطاع الشعب استعادة حقوقه الديمقراطية التي حُرم منها، ويمكن للأحزاب الديمقراطية أن تمارس أنشطتها بشكل فعال. يجب على الحكومة المالاوية أن تقدم ضمانات حقيقية بأنه في حال أوقف الحزب الشيوعي المالاوي عصيانه المسلح فلن تكون هناك أعمال انتقام أو اقتصاص. وإن قبل الحزب أن ينشط ضمن الأطر القانونية في الحياة السياسية فإنه يجب أن يسمح له بذلك كحزب شرعي.

كنت وراجا راديكاليين وثقافتنا غربية. لا نحمل فكرة حول ديناميكية انتفاضات العصابات المسلحة وعنف الثورات. أدركنا متأخرين أن الشيوعيين لن يتخلوا عن إمكانية استعمال القوة المسلحة عندما لا تحقق لهم الوسائل الإمساك بزمام السلطة. لكن بينما كانت مطالبنا التي لم تكن صائبة، تتسم بالبراءة، كانت أساليب الشيوعيين وأنصارهم تتسم، بشكل أوسع، بالمكر في احتواء التجمعات الشعبية وتسييرها في المنحى الذي يريدون. كانوا كمخرجي المسرح البارعين

يوجهون قادة مؤيديهم وينظمون التصفيق الطويل والمدوي في حال كان الخطيب يهاجم أنظمة الطوارئ. مما يجعل هذا الموضوع يبدو وكأنه الموضع الأهم، لأن إلغاء هذه الأنظمة سيسمح للحزب الشيوعي المالاوي بالعمل في العلن ويمكنه من ترتيب أوضاعه التنظيمية. في البداية لم أكن واعياً لما يجري، بل كنت مأخوذاً بما بدا لي أنه عفوي، ولكن بعد أن شاركت في أكثر من اجتماع شعبي خلال السنتين التاليتين بدأت أنتبه بالتدريج إلى أن قادة المؤيدين كانوا يندسون في صفوف المتجمهرين وينتظرون إشارة من زعيم لهم، ما إن تعطى حتى تنتقل إلى ثلاثين أو أربعين شخصاً حضروا خصيصاً لتنفيذ مشاهد التصفيق. وطبعاً عندما يصفقون تنتقل العدوى إلى بقية المتواجدين حولهم. هذا الإخراج كان يقدم بشكل مؤثر. كنت أرى في ذلك إعادة للعبة (محاكاة القائد) التي تجري خلال النزهات حيث يتجمع التلاميذ من 20 إلى 30 تلميذاً بشكل دائري ويقوم الجميع بأداء حركة واحدة كلمس الأنف. أو شد الأذن أو جذب كم القميص، كانت اللعبة تتلخص في معرفة الشخص الذي يقوم بتغيير الحركة أولاً ومن ثم يسارع الجميع وبشكل فوري وموحد تقريباً بتغييرها معه. رغم وجود الفريق الجيد لم يكن القيام بذلك سهلاً. هذه الإدارة المسرحية الماهرة، وكذلك التمكن من فن الخطابة هما السبب الذي أدى إلى ذيوع شهرة ليم تشين سيونغ خلال أسابيع الحملة الانتخابية.

عرفت فيما بعد، أنه لو قام الخطيب بقول شيء يخالف خط الحزب فإن أفراد مجموعة المصفقين المأجورة تتعامل معه ببرود بحيث تربكه في خطابه كما تصدر أصواتاً مربكة. وفحيحاً هامساً، وتظهر الاستخفاف بما يقال بحيث تشتت انتباه السامعين. طوّر الشيوعيون هذه التقنية في فهمهم لنفسية الجموع وارتقوا بها إلى درجة الفن الرفيع. وقد كانت تعطي نتائج كبيرة عند استخدامها بين الحشود من ذوي التعليم الصيني، ولكن بدا لي أنها لم تتمكن من التأثير في ذوي التعليم الإنكليزي. قلت في ذلك الوقت أشياء كثيرة أعتبرها

الآن ضرباً من الحماقة، وربما كان من حظنا أن حزب العمل الشعبي لم يقم بتشكيل الحكومة وإلا كان عليه تنفيذ الاقتراحات المطروحة، ورغم ذلك استطعنا في الوقت ذاته إثارة التوقعات بالتغيير الكبير. استطعنا أن نثير اهتمام الشعب إلى الدرجة التي شددناه معها إلينا واستمع إلى خطاباتنا التي ملأته بالأفكار المثيرة واستنهضنا فيه روح التحدي والتمرد. فالمعركة الانتخابية التي استمرت خمسَ أسابيع غيّرت بشكل قاطع المزاج الشعبي في سنغافورة. ولكن إذا اعتبرنا حفلات الشاي شيئاً من الماضي فإن كل ما جرى من تحريض وبلاغة لفظية سيترجم قريباً عنفاً دموياً.

11. الجولة الأولى للشيوعيين

لم يكن لا يكوك سعيداً بل كان يزداد تعاسة بسبب نشاطاتي السياسية ولكنه لم يَشْتَكِ لي مباشرة. وفي عام 1954، وبعد ثلاث سنوات من الخدمة، أعطاني عقد مشاركة أتعهد بموجبه بحد أدنى يزيد على ما أتقاضاه أنا وتشو معاً. لم يكن يرغب في استمرار العمل مع تشو، التي كانت سعيدة في البقاء في البيت لتعتني بشؤون لونغ ـ ثم بشؤون لينغ التي ولدت في كانون الثاني (يناير) 1955. كان يعلم أنني أقوم بعملي وفقاً لاتفاقنا وكان متسامحاً معي. ولكن هزيمة (الحزب التقدمي) واستبعاده من قبل المنتخبين في كاتونغ كانا ضربتين قاصمتين. ولعله ظن أن «التقدميين» سوف يشكلون الحكومة وسأكون أنا في صفوف المعارضة. لم يتحدث إلي ثانية، لأنه ظن أنني لم أعد مقبولاً مطلقاً. وأخيراً كتب إليّ رسالة يطالب فيها بإنهاء شراكتنا بأسرع وقت ممكن، مقترحاً تاريخ نهاية شهر آب(أغسطس) 1955 لتنفيذ ذلك. وافقته على الفور. وهكذا انتهى أحد فصول حياتي المهنية.

في السنوات الخمس التي تلت عودتي من إنكلترة حققت شيئاً من الممارسة الحقوقية كما بنيت قاعدة من التأييد والدعم السياسي أخل النقابات. ولكن الآن أمامي مهمتان: أن أشرع بعملي الحقوقي المهني الخاص وأن أوجد شكلاً تنظيمياً «لحزب العمل الشعبي» ـ PAP. لم يكن ثمة حاجة ملحة كثيراً. فلدي أربع أشهر قبل أن أغادر لايكوك وأونغ) وأربع سنوات لتأطير حزب عمل الشعب PAP قبل الانتخابات العامة المقبلة. فشكلت مع تشو وأخي دينيس مؤسسة «لي ولي» في شارع ملقه، القريب من (لايكوك وأونغ). ما لم أتوقعه هو تأثير الحملة الانتخابية على المناضلين والنقابيين. فالنشاط المسعور لأنصار الشيوعيين، وخطبهم العنيفة حول ليم تشين سيونغ وديفان نير قد ولّدت أجواء ساخنة. فكثير من أعضاء

الحزب الشيوعي المالاوي MCP كانوا في مركز ضعيف أو كانوا متوارين منذ إعلان حالة الطوارئ. وفي الأسابيع التي سبقت والتي واكبت الانتخابات ظهروا إلى العلن، مستخدمين استتارهم كعامل مساعد في الحملة لإثارة مشاعر مناهضة للسلطة بين العمال، وسكان الأرياف (معظمهم من الفلاحين الصينيين) وطلاب المدارس المتوسطة الصينيين. كانوا يختزنون كراهية الإمبرياليين والحكومة والشرطة الاستعماريتين، والرأسماليين البريطانيين، والتجار الوسطاء (الكومبرادور) المحليين الذين ساعدوا البريطانيين على استغلال الناس. خلقوا جواً محتدماً ـ حتى ظن كل من يحيط بهم أن الثورة الناجحة باتت وشيكة. وقد أثبتت الحالة النضالية أنها ناقلة للعدوى.

قبل قضية "فاجار" كنت أبحث عن نشطاء محتملين بين طلاب جامعة المالايو الذين يرغبون في العمل مع الاتحادات. كان عليّ القيام بكثير من العمل، وكنت بحاجة إلى مناوبين يعملون طوال الوقت. ولم يكن ذلك بالأمر السهل. فالمتخرجون الجيدون كانوا يتطلعون إلى أعمال أو مهن جيدة. ولا أحد يرغب في أن يتقاضى راتباً يقل عن الرواتب التي تُعطى لمن يحمل مثل مؤهلاته، ويعمل مع الاتحادات. بمعنى آخر لم تكن ثمة حماسة. والقلة الذين جاؤوا كان دافعهم مثالية الشباب. أحد هؤلاء كان ساندرا سيغرام (أو سيدني) ودهال الذي عينته في «اتحاد عمال القاعدة البحرية» براتب ضئيل كأمين سر. وكان الآخر جاميت سينغ الذي أخفق في امتحاناته الأخيرة، ولكنه كان نشيطاً في العمل. وبتوصية مني مُنح راتب أمين سر «اتحاد هيئة موظفي ميناء سنغافورة».

شهد هذا الاتحاد إضراباً سلمياً من جانب الموظفين الهنود والصينيين من ذوي الثقافة الإنكليزية. وكان جاميت هو الذي دعا إلى الاضراب لأن «هيئة الميناء» لم تفِ بوعدها بدفع قيمة ساعات العمل الإضافية، والعلاوات، والتقاعد، والحقيقة أنه يريد الشغب فحسب، وشدد الضغط حتى بعد أن عرضت «هيئة الميناء» زيادة الأجور. كان ذلك كله خطئي. كنت ساذجاً عندما أقمت صلة ما بين

النشطاء القلائل من ذوي الثقافة الإنكليزية مع كوادر الحزب الشيوعي MCP من الناطقين بالصينية. الآن حتى السيد جاميت سينغ سار في ركاب ليم تشين سيونغ وفونغ سوي سيوان لأنهما كانا من الأكثر نشاطاً من جميع النقابيين. وراح يحث النقابات الناطقة بالصينية على أن تكون أكثر صرامة ومجابهة، كما حرّض الموظفين العاملين معه على ذلك. والأكثر من ذلك أنه انضم إلى ديفان نير وجيمس بوثو تشيري (وكانا قد احتجزا معاً في جزيرة سان جون) في «اتحاد عمال مصنع سنغافورة»، الذي قفز عدد أعضائه من بعض مئات في السنة الفائتة إلى أكثر من عشرة آلاف عضو، كما ساعداه على أن يعمل ضمن القانون ويدخل الناطقين بالصينية إلى الأوساط البيروقراطية الناطقة بالإنكليزية.

كانت الكوادر الموالية للشيوعية مبتهجة لما اكتسبته من معارك سياسية مع الناقلة السياسية الشرعية، وحزب العمل الشعبي، ومع الزعماء ذوي الثقافة الإنكليزية الذين يفهمون الدستورية. وهذه أعطتهم غطاء لعملهم. كما أن موقف ليم تشين سيونغ، عضوَ جمعية تشريعية قد أعطاه مركزاً واحتراماً لدى الحكومة ومسؤولي الشرطة. ثم جاءت الضجة التي نجمت عن الهزيمة الكاملة والشاملة للحزب الديمقراطي والشغب الذي حدث داخل الحزب التقدمي الذي يضم الاختصاصيين من ذوي الثقافة الإنكليزية. وفي مواجهة هذا التحدي كانت هناك حكومة «جبهة عمالية» تتشكل من انتهازيين ضعفاء وعلى رأسها رئيس وزراء جيد ولكنه غير محنك سياسياً هو ديفيد مارشال، الذي لم يكن يفهم لغة الناطقين بالصينية. ولكنه كان يتطلع بلهفة إلى أن يلعب الدور الذي يتطلع إليه كليبرالي واشتراكي وهو تحرير سنغافورة من الاستعمار.

جددت معرفتي في «الجمعية التشريعية» مع وليام غود Goode، السكرتير الأول. إذ قابلته أول مرة عام 1953 حول شكوى ثانوية لموظفي البريد. وغود الآن من المؤمنين بضرورة «أحكام الطوارئ» بسبب تفشي الجريمة وأعمال العنف والأذى التي باتت جزءاً من تطلع الشيوعيين للسلطة. إذ لم يقوموا

بأعمال الإرهاب ضد العسكريين فقط، بل وضد المدنيين أيضاً لإكراههم على مؤامرة الصمت. وكانت النتيجة أن بات الجميع يخشون الشهادة ضد أية جريمة لها صلة بأحد الشيوعيين حفاظاً على حياتهم. فهو مازال يذكر جريمة القتل التي وقعت في 17 نيسان لشاب صيني يانعٍ خرج من نادٍ للموسيقى وهو يعزف الهارمونيكا، فأطلق أحدهم النار عليه. كنت في ذلك الوقت في «اتحاد هاكا دابو» المجاور في حفل شاي أقيم على شرفي للاحتفال بانتصاري في الانتخابات، وسمعت صوت الطلقة الذي ما يزال يرن في أذني. حدثت الجريمة في وضح النهار، ولكن لم يتقدّم أحد ليُعرّف على المجرم أو ليساعدَ الشرطة، التي كانت عاجزة دوماً عندما يتعلق الأمر باعتقال شيوعيين أو بجلبهم إلى قاعة المحكمة.

كنت أعرف من خلال السنوات الخمس التي أمضيتها في ممارسة المحاماة أن غود لا يخشى أحداً تجاه الإدلاء بالحقائق. ولكن ما كان بوسعي تأييد تمديد «أحكام الطوارئ» لأننا كنا قد انتقدناها في حملتنا الانتخابية بقوة. وكان موقفنا آنذاك مسألة مبدأ، مؤمنين بأننا عندما نحصل على الاستقلال يجب علينا أن نتخلص من تلك الأحكام. وفي نيسان بدأت تنتابني بعض الشكوك تجاه ذلك، ولكن الأمر كان يحتاج إلى عام آخر ونصف العام حتى أقتنع أنا، وراجا، وكينغ سوي، وتشين تشي وكيني بأننا كنا جميعاً على خطأ.

ولكن كان علي أن أقوم بدور في الجمعية من أجل تخفيف عبء الوضع الأمني ودفع جدول أعمالنا إلى الأمام. لهذا قلت بتهكمٍ، رداً على خطبة بيل غود: (تلك كانت النتيجة الرئة لعدم قدرة الشرطة والأمن السري على مواجهة الأمور). وأضفت بأنه (لا يوجد دليل بمقدار ذرة) على أن التلميذ قُتل في ظروف غامضة أو كان ضحية حملة إرهاب، والحقيقة الناصعة أنه قُتل، ووقف رفاقه مذعورين يرون أن من الحكمة الوقوف بعيداً عن الحادثة.

أضفت: لا إلغاء «الأحكام العرفية» ولا تمديد العمل بها يحلان المشكلة. إذا كنا نريد حلها فليكن لدينا الشجاعة على القول: (نحن نؤمن بالديمقراطية وسنقاتل من أجلها. وإذا فشلنا علينا أن نعترف، كما اعترف الفرنسيون في الهند الصينية بأنه لا يمكن أن ينجح أي شيء). واعتقدت آنذاك لو أن الفرنسيين أعطوا الفيتناميين استقلالهم الكامل لما تحول الفيتناميون إلى الشيوعية.

بعد اجتماع اليومين الأوليين «للجمعية» كان من الواضح للصحفيين وللحاضرين أن اللاعبين الكبيرين كانا مارشال وأنا. فهو يتمتع بشخصية لافتة للنظر وبالموهبة اللغوية وبمقدرة مسرحية تجذب انتباه «المجلس». وكان لدي براعة اقتناص استعاراته وتفريغها من معناها والاستمتاع بذلك. ومع أن «حزب العمل الشعبي» كان لديه ثلاثة أعضاء فقط في «الجمعية» بالإضافة إلى أحمد إبراهيم فقد أجلسني السير جورج أويهليرز في المقعد الذي يجلس فيه عادة زعيم المعارضة في مواجهة رئيس الوزراء.

كان أويهليرز محامياً في أواخر الأربعينيات من عمره، شديد الدقة والتمحيص، يحرص على أن يكون عادلاً وغير منحاز لأي طرف. وقد عرف أن الجلسات التي سيديرها ستكون أكثر حرارة إذا ما جلست في مواجهة مارشال لأنني سأجابهه.

ما لم يكن يعلمه الرئيس بعد أن مارشال يغضب بسهولة ويقوم بالتهجم على خصمه ثم لا يلبث أن يعتذر. وكان عليه أن يواجه امتحاناً حيوياً لسلطته لأن مبادرة ليم تشين سيونغ ونشاطات فونغ أثناء الحملة الانتخابية كان من شأنها أن تحملها حتماً على صدام مع الشرطة.

نجح فونغ في جعل عمال شركة بايا ليبار للباصات ينضمون إلى اتحاده في شباط ضد رغبات أرباب عملهم، وكانوا يحاولون أن ينتصروا على الشركة. ولكن كويك سينغ ليونغ، المدير الإداري الصارم للشركة لم يكن ليتخلى عن عماله

وشركته إلى مجموعة من الشيوعيين الشباب، والأكثر من ذلك أن وزير العمل ليم هوك كان يدعمه، وكذلك كان يدعمه" مجلس نقابة سنغافورة" ومع هذا كان فونغ مصمماً على تلقين كويك وباقي شركات الباصات درساً.

بعد يوم من افتتاح الجمعية في نيسان 1955جعل مؤيدي «اتحاد عمال الباصات في سنغافورة» يحتفلون بالعيد السنوي الأول. وأعلن عن إضراب رسمي، وحثّ عمال جميع شركات الباصات على التضامن إذا لم يوافق كويك على أن يصبح هوك لي منضماً إلى اتحاد عمال الباصات (SBWU) بوصفه الاتحاد الأوحد والأسرع في حل النزاعات. وكان جواب كويك طرد 229 عاملاً يتبعون إلى «الاتحاد» مما دفع العمال إلى الإضراب عن الطعام وما لبثوا أن استعادوا أعمالهم في الليلة ذاتها.

شارك طلاب المدرسة الصينية المتوسطة في هذا النشاط. فقد عمد الطلاب والطالبات إلى تسلية المتظاهرين بأغانٍ ورقصات من أجل الدعم والتشجيع. نصحت فونغ ألا يدعو إلى الإضراب إلا بعد إعطاء مهلة 14 يوماً وانتهاء هذه المدة. وافق فونغ ولكن في خطبة له في الجمعية التشريعية في 27 نيسان اعترض ليم تشين سيونغ على الإعلان، والذي كان مطلوباً في ظل الأحكام العرفية.

لم يخفْ كويك من التهديد بالإضراب وأراد أن يحرك باصاته في اليوم التالي. ولكن 150 متظاهراً من جماعة فونغ شكلوا سداً بشرياً أمام البوابة الرئيسية لمحطة الباصات، ورفضوا أن يتحركوا على الرغم من تحذيرات الشرطة المتكررة. عندئذ استخدمت خراطيم المياه وتفرقوا. وادعى خمسة عشر متظاهراً أنهم هوجموا بوحشية، ولكن لم يكن هناك إلا بعض الكدمات السطحية. واستطاع كويك أن يشغل أربعين باصاً من حافلاته السبعين في الطرقات.

وفي الأسبوعين التاليين تلقيت درسي الأول في التاكنيكات التفاوضية مع CUF. كان كل تساهل معهم يؤدي إلى مطلب جديد. وكل رفض لأي مطلب يزيد من الحرارة والتوتر. وفي غضون ذلك كان الطلبة الصينيون مع مؤيدي مصنع ليم

تشين سيونغ و«اتحاد عمال المخازن» يستمرون في زيادة المضربين لإشعارهم بالتضامن معهم وبقناعتهم بأن النصر حتمي. ولم يكن ليم وفونغ يريدان ما هو أقل من السيطرة الكاملة على جميع عمال الباصات، بل وأن يكونا قادرين على شلّ نظام المواصلات في المدينة كذلك.

في 29 نيسان تدخل مارشال وذهب إلى محطة هوك لي للباصات لرأب الصدع والتواصل إلى تسوية. وعرض كويك، تحت ضغط من رئيس الوزراء، أن يسترجع العمال المضربين في انتظار نتيجة تحقيق المحكمة الذي أمر به ليم يو هوك. حضَّيت فونغ على القبول بهذا. كان ف.أ. تشوا، القاضي الذي عالج قضية «فاجار» رئيس محكمة التحقيق. ولما كان رجلاً عملياً فقد سعى إلى حل عملي. فقد أعطى ثلثي الباصات لاتحاد فونغ وأعطى ثلثاً للاتحاد السكني على أن تعمل في طرق منفصلة، وأوصى بأن يعاد جميع العمال إلى أعمالهم. وفي اليوم التالي عادت الباصات إلى عملها.

ولكن الإضراب استؤنف في غضون ساعات عندما رفض مفتشو البطاقات من اتحاد فونغ أن يسجلوا أسماءهم في الشركة قبل أن يغادروا محطة الانطلاق، فيما ادعى آخرون أنهم كانوا عرضة للتمييز لأنه لم تُسلم إليهم إلا عربات في حالة سيئة. استمر العاملون في اتحاد هوك لي في تشغيل باصاتهم في الطرقات، ولكن المضربين مزقوا المقاعد وقرعوا الأجراس بقوة كي يزعجوا السائقين. وخرجت مفارز للطوارئ ثانية وكان على الشرطة أن تستخدم خراطيم المياه لتفرقتهم. كان ذلك مجرد بداية. وفي اليوم التالي دعا فونغ إلى أن تتوقف جميع شركات الباصات السبعة في سنغافورة لمدة يومين مما سيؤدي إلى توقف وسائل المواصلات العامة.

هدد عشرون اتحاداً بالإضراب العام ما لم تبدأ مفاوضات مباشرة بين شركة هوك لي للباصات وشركة SBWU في غضون 24 ساعة. وسرعان ما انضمت إلى الإضراب شركتان، وبذا خلت شوارع المدينة إلا من التاكسيات والسيارات الخاصة. كما توقف العمل في كثير من المناطق الأخرى.

وفي الصباح ذاته عادت مفارز الطوارئ إلى محطة انطلاق الباصات التابعة لهوك لي. وقد حثهم فونغ على الشجاعة بحيث يكونوا حازمين هذه المرة. وبعد الظهر انضم إليهم طلاب المدارس الصينية في 20 شاحنة، وانطلقوا إلى المحطة حيث نشبت معركة حامية الوطيس بين ألفي طالب و300 متظاهر وبين الشرطة. كانت الأسلحة الرئيسية هي الحجارة والزجاجات الفارغة من جهة، والغاز المسيل للدموع من جهة ثانية. وكان رجال الشرطة يستخدمون أسلحتهم النارية بين حين وآخر. وعندما حلَّ الظلام صارت أعمال العنف أكثر شدة.

وفي قرابة الساعة التاسعة اتجهت إلى شارع تانغلين وشارع جيرفيوس، اللذين كانا يُطلان على محطة باصات هوك لي. سمعت في الراديو عند الساعة 9.30 مارشال يتحدث على الهواء. كان حزيناً ومضطرباً. كان يعمل لصالح عمال المدينة ولكنهم مع هذا كانوا يضربون. ذكّرهم بتضحياتهم السابقة التي جعلت سنغافورة مزدهرة، وتوسل إليهم أن يمنحوه الوقت ليضع الأمور في نصابها. قال: «لدينا المزيد من المساعي، وما زلنا نتطلع إلى خدمات البروفيسور آرثر لويس من جامعة مانشستر من أجل أن يساعدنا في إعادة توجيه الاقتصاد في هذه المنطقة لصالح شعبها». لم أكن أصدق عيني.

حزنت من أجل مارشال ومن أجل سنغافورة. كان عليه أن يترك الحاكم كي يعالج هذه المشكلة، أو أن يتحمل مسؤوليته، وعندئذ سيكون عليه أن يخبر العمال المضربين أنهم ما لم يوقفوا هذا العنف فإن عليه أن يستخدم القوة كي يستعيد القانون والنظام. وفي 21 أيار أبلغ الحاكم آلان لينوكس لويد أن «رئيس الوزراء واقع تحت ضغط قوي من جانبي ومن جانب الآخرين، خاطب الجماهير عبر إذاعة المالايو في كلمة مطولة وغير مقنعة، واضعاً اللوم مرة أخرى على الاستعمار وعلى الاستغلال الاقتصادي للوضع».

استمر العنف في اليوم التالي. ففي الساعة الرابعة بعد الظهر كانت جماعات جماهيرية يبلغ تعدادها ما يقارب الألف شخص، تهاجم الشرطة التي جابهتها بالغاز المسيل للدموع. وبعد أن حلّ الظلام استمروا في ضرب مخافر الشرطة، والحواجز في الطرق، وأفراد من الشرطة، والسيارات التي تحمل مكبرات الصوت. واستمر النزال طوال الليل حتى الساعة الثالثة صباحاً أي عندما تفرقت الجماهير. ولكن ظلت مجموعات تتألف من عشر أو عشرين شخصاً تلقي بالحجارة على الشرطة الذين كانوا يمشطون الطرق ويبعدون العربات التالفة. قُتل اثنان من رجال الشرطة وجرح 14 شرطياً، بالإضافة إلى 17 مدنياً. فحيثما ينشب العنف كانت الجماهير تتوجه نحو أي أفراد من العرق الأبيض نظراً لأن مشاعر الكراهية نحوهم كانت في تصاعد. تعرض صحفي أمريكي يعمل في وكالة يونايتد بريس إلى الضرب حتى الموت، ونجا ثلاثة أوروبيون بمشقة.

بعد أحداث العنف في 13 أيار 1955 قررت الحكومة أن تلجأ إلى الصرامة فأغلقت ثلاث مدارس صينية. ولكن الطلاب استمروا في التظاهر وأيدتهم النقابات التي يسيطر عليها ليم تشينغ سيونغ وفونغ، وجرت مسيرات أكثر عبر المدينة واستمر إلقاء الحجارة على السيارات. ولكن الوضع المتوتر تراخى أخيراً بعد دفن طالب صيني في 15 أيار فمر بعدها النهار بدون حوادث. في تلك الليلة وبعد أربع ساعات من الوساطة أذاع مارشال بسعادة أنه تم التوصل إلى اتفاق "يمكن أن يؤدي إلى تسوية لجميع الإضرابات القائمة ذات الطابع الصناعي" في سنغافورة. وعُيّن تشارلز غامبا مُحكماً، وهو شخص يعرف عنه أنه متعاطف مع الاتحاد. أعطى غامبا حكمه النهائي في 28 أيار. وتضمن أن يعود أعضاء SBWU الذين طردوا في 23 نيسان إلى أعمالهم. وتضمن القرار حل «اتحاد مستخدمي هوك لي»، وفُصل 160 عضواً.

لم يكن كويك ليسلم بسهولة. فهو ما يزال يوفر أعمالاً لاتحاد هوك لي الذي كان وفياً له. كان كويك قاسياً وجريئاً. كانت شركة هوك لي للباصات شركة عائلية وكان واثقاً أنه يستطيع أن يقاتل ويربح لأن كثيراً من أعضاء الاتحاد كانوا

من عشيرته وكذلك كان الموظفون الرئيسيون مثل المشرفين والمسؤولين عن الدوام من أقربائه. ولكن حكومة غير خبيرة، غير عارفة بأسرار اللعبة، ساعدت الشيوعيين على كسر القبضة المحكمة لجميع شركات الباصات في سنغافورة.

كان نصراً شاملاً لفونغ ولاتحاد عمال باصات سنغافورة وأساليبهما، ولا يقل عن ذلك أنهم باتوا الآن يتمتعون بتأييد مارشال الكامل. عرفوا أن ثمة باباً دائرياً يمكنهم أن يدفعوا به. أما الطريقة التي قاتل بها SBWU وكسب، فقد أعطت جميع النقابات ـ من عمال وزعماء، من شيوعيين وغير شيوعيين ـ الثقة بأن لديهم الكثير مما يربحوه إذا أظهروا أيضاً القدرة على القتال.

12. مارشال يبرز الأزمة

اعتُقل فونغ سوي سيوان وأربعة آخرون من القادة النقابيين من قبل الحكومة بموجب «أحكام الطوارئ» في 11 حزيران (يونيو) من عام 1955. وخرج ستة آلاف من عمال الباصات في مظاهرة احتجاجاً على الاعتقال. وفي اليوم التالي، وبفضل ما وصفته السلطات «بإجبار الغوغاء على الطاعة»، اختفى سائقو التاكسي أيضاً من الشوارع. ولكن الحكومة أنزلت شاحنات خدمة مجانية احتياطية إلى الأجزاء المهمة من المدينة، وعاد مئة ألف عامل، و280 ألفاً آخرين إلى العمل كالمعتاد بدون حوادث. ورغم الشلل الذي أصاب المواصلات العامة فقد أخفق الإضراب في جعل المدينة في حالة جمود. فهذه المرة لم يتجاوب الناس مع الإضراب. فقد كان سياسي الطابع إلى حد بعيد ولا صلة له بمعاناتهم الاقتصادية. وبعد أربعة أيام دعا كل من ليم تشين سيونغ وديفان نير إلى إيقاف الإضراب، وعاد 13300 عامل من رجال ونساء من 90 مؤسسة صناعية وتجارية إلى أعمالهم. وأعلنت الحكومة انتصارها. ولم يطلق سراح فونغ حتى 25 تموز (يوليو).

قررت أن أخرج من مستشفى المجانين هذا وأن آخذ إجازتي السنوية. وركبت السيارة ومعي تشو وابنتنا لونغ وعمرها 3 سنوات متجهاً إلى "كاميرون هايلاندز" في الأول من شهر حزيران (يونيو) التي تقع على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر، وقضينا هناك ثلاثة أسابيع وكنا قد تركنا لينغ في البيت لأنها كانت صغيرة جداً لا يتجاوز عمرها 5 أشهر. كنت ألعب الغولف يومياً في تاناه راتا. وكنت أفكر ملياً في خطورة أحداث الأشهر القليلة الماضية. وشعرت في أعماقي أن الاستمرار في الطريق الذي شقه ليم تشين سيونغ وفونغ سوف ينتهي بنا إلى كارثة سياسية. فحزب «عمل الشعب» واتحادات «الطريق المتوسطة» (نسبة إلى المكان وليس إلى سياساتها) سوف تخضع للحظر. ولكن إذا كان مارشال سيحجم

عن اتخاذ إجراء غير شعبي، فإن الاقتصاد والمجتمع في سنغافورة كلاهما سيقعان في حالة من الفوضى مما سيجعل الحكومة البريطانية تُعلق الدستور. في 21 حزيران عدت إلى سنغافورة مع أسرتي. وكانت الصحف قد أشارت إلى أنني هربت بعيداً من تلك المتاعب، ولكنني أعرف أن حضوري لن يغير شيئاً. وعندما سألتني صحيفة «ستريتس تايمز» لماذا لم أعد من إجازتي؟ قلت: إن لجنتي التنفيذية لم تطلب مني ذلك، وأنا لي مطلق الثقة بها.

استخلص الحاكم البريطاني في 26 أيلول، السير روبرت بلاك في تقريره إلى آلان لينوكس ـ بويد ما يلي:

(انهيار هذا الإضراب العام يعني عدم الثقة بالعناصر المتطرفة في حزب العمل الشعبي PAP. كان لي كوان يو بعيداً عن سنغافورة في ذلك الوقت، وقد علمت أنه غادرها متعمداً حتى لا يكون له دور في العنف... من ذلك الحين كان ثمة تغييرات في تكتيكات الحزب. فمع الاستمرار في الإضرابات من أجل حملتهم الرامية إلى السيطرة على العمال، كانوا ملتزمين بالتقيد بالقانون).

بيد أن هذا الهدوء النسبي لم يستمر طويلاً. فبعد أشهر قليلة عاد الموالون للشيوعيين إلى أساليبهم القديمة، ولكنهم لم يقوموا بصدامات وأعمال عنف دموية ضد الشرطة، أو الإعلان عن إضراب عام لشل الاقتصاد. وكنت أعتقد أنهم مايزالون يظنون أن الاشتباكات مع الشرطة والحكومة هي الطريقة لإثارة الكراهية واستثارة الحماسة الثورية عند الجماهير. كان هناك أوقات يظهر كل من ليم وفونغ فيها أنهما يُصغيان إلى نصيحتي بالمحافظة على أساليب النضال الدستوري مع مفاوضات طويلة ومقاومة سلبية لتجنب سفك الدماء. ولكن كانت لهما تقاليد وخلفية سياسية مختلفة عني. كان لهما نموذج مختلف في التفكير.

كنت في وضع شديد الصعوبة. ففي الوقت الذي كنت لا أستطيع ولا أرغب في الدفاع عنهما، ما كنت أستطيع إدانتهما لأن من شأن ذلك أن يؤدي إلى انفراد جبهتنا. وكما شرحت لمراسل صحيفة «سيدني ديلي ميرور» في مقابلة

نُشرت في «ستريتس تايمز»: «لا يستطيع أي إنسان يريد أن يشد الناطقين بالصينية إلى جانبه أن يكون معادياً للشيوعية. فالصينيون فخورون جداً بالصين. وإذا كان لي أن أختار التصويت ما بين الكولونيالية والشيوعية، فإنني سأصوت للشيوعية وهكذا ستفعل الأكثرية». كنت آمل أن أستطيع أن أجلب ما يكفي من الصينيين للتصويت معنا ضد الشيوعيين ومع الاستقلال والديمقراطية. ولكنني لم أكن غافلاً أبداً عن صعوبة تحقيق ذلك إذا استمرت الصين الشيوعية الناجحة في أن تظل إلهامهم.

كنت واقعاً تحت ضغط. فالوزير الأول دعا إلى لقاء طارئ «للجمعية» في 16 أيار (مايو)، للتأكيد على جذب مشاعر الشعب ضد النقابات، وعزل حزب PAP وتقليص شعبيته وجعل غير الشيوعيين في الحزب منفصلين عن الشيوعيين. وقد قاد الهجوم هذه المرة، الأمين العام بيل غود Goode. إذ ألقى خطبة قوية مسترجعاً الأحداث بشكل واقعي ومؤثر. أبدى أسفه على الخسائر في الأرواح، وامتدح الشرطة، وأدان الأشرار الذين استغلوا العمال والطلبة. وإخفاق الصحف الصينية المناورة في دعم جانب القانون والنظام. وبيّن أن جميع الجهود التي بذلت لتحقيق تسوية قد أُفشلت، كما قال غود، من قبل «أناس لا يريدون بوضوح للمظالم أن تنمحي، وإنما استغلال مظالم العمال الأبرياء، من أجل مصالحهم الشريرة».

واستدار نحوي، وتابع قائلاً:

«في سعيهم الحثيث للوصول إلى السلطة... فإن «حزب العمل الشعبي» PAP وأنصاره من الشيوعيين المستترين كانوا يريدون العنف وسفك الدماء والاضطراب الصناعي... إذا كان العضو الشريف يعتقد بالتقدم المنتظم نحو الحكم الذاتي الديمقراطي، فعليه عندئذٍ أن يكون ضد الشيوعية. وإذا كان ذلك فعليه أن يعلنه بصراحة وبصوت عال، وبدون مراهنة. فقد نشر العنف وجعل الرجال يُقتلون... أسأله: ماذا فعل للحيلولة دون العنف قبل أن يقع؟ هل ضميره راضٍ؟ أم أنه فقد السيطرة على تيماه (ليم تشين سيونغ) الذي يجلس بجانبه ويقود الحزب؟».

وتلاه جون إيد Ede المغترب الذي فاز بوسام «التقدم». لقد جعل مهمتي أسهل. نهضت على الفور بعده وقلت: «لقد زان كلماته بكثير من العناية، والحذر، وبكثير من الفهم لصعوبات ومخاطر الوضع، وبكثير من الفهم لآمال الناس ومخاوفهم...

لم نأتِ إلى هنا كسجناء كي نتهم، ولا كسجناء ينبغي إدانتهم وتحميلهم عبء الذنوب. بل جئنا إلى هنا كممثلين للشعب وسنتكلم بصفتنا هذه».

(وقلت عن موقف حزب PAP) مكرراً: «تحطيم النظام الاستعماري بغير أساليب العنف. نحن نكره العنف وننبذه... نحن غير مستعدين للقتال، ولا لإطالة بقاء النظام الاستعماري. ولكن أعطونا حقوقنا ولسوف نقاتل الشيوعيين أو أية جماعات تهدد وجود مالايو مستقلة وديمقراطية وغير شيوعية». لم يعرف مارشال أنه بخطبته، بل والأسوأ من ذلك تعطشه إلى إنهاء النزاع أو تجنبه، قد فتح «صندوق باندورا» فكل عامل في سنغافورة، أو كل زعيم وكل عضو كان يعرف أن لديهم حكومة يستطيعون الاستفادة منها لتحقيق أهدافهم الخاصة، وحشر أصحاب العمل، والحصول على مكتسبات، وعلى امتيازات إدارية.

بدأت نجاحاتهم تتبخر. ففي آب (أغسطس) 1955 ارتفع عدد أعضاء «اتحاد عمال المصانع والمخازن في سنغافورة» (SFSWU) إلى 23 ألف شخص، معظمهم من الصينيين الشباب. وفي تلك الفترة ساعد أعوانه من ذوي الثقافة الإنكليزية، بمن فيهم نير، وودهل، وجيمس بوتشيري ذوي الثقافة الصينية على التخلص من النظام الاستعماري البريطاني. وكان أسلوبهم يجمع ما بين التغلغل في النقابات القائمة، وإنشاء نقابات جديدة وكان سلاحهم الإضراب المعنوي، بمعنى أنه في أية شركة، أو في أية قضية فإنهم يهددون بالتوقف عن جميع الأعمال. كما فعل الشيوعيون في الصين، كانت هذه جبهة متحدة تضم العمال والطلاب والفلاحين (كما كان الأمر في سنغافورة) لإثارة القلاقل وتحويل النزاعات العمالية إلى قضايا سياسية، وزيادة الكراهية الطبقية والعرقية (ضد الرجل الأبيض) وازدراء

السلطة. ما إن أصبح SFSWU نقابة اخطبوطية مختلفة بمن تضمهم من العمال الناطقين بالصينية حتى توجه ليم تشين سيونغ وفونغ إلى اتحاد موظفي ميناء سنغافورة، واتحاد عمال البحرية واتحاد عمال مجلس المدينة. وهي منظمات غير شيوعية حيث كان أعضاؤها من الهنود والمالاويين والصينيين الناطقين بالإنكليزية مستعدين لمواكبة SFSWU. لقد تأكدوا أنهم يستطيعون استخدام نضالية الاتحادات الصينية والتهديد بالإضرابات من أجل تحقيق مطالبهم.

اعترف السير روبرت بلاك أيضاً أن الوضع قد تحول نحو الأسوأ. ففي 26 أيلول (سبتمبر) كتب إلى لينوكس بويد يقول: «أثناء الانتخابات.. كان ثمة خطب متزايدة تهاجم الحكومة.. وحزب PAP بات يحظى بتأييد متزايد من جانب العمال والطلاب الصينيين، ومشاعر الناس فائرة. كل هذا أدى إلى فقدان السلطة الدستورية للاحترام، وازدياد الاحترام لأولئك الذين... كانوا يتحدون الحكومة علانية».

كانت سنغافورة في غمرة مهرجان من الاضطرابات ـ ففي فترة الشهور التسعة، أي ما بين 7 نيسان وشهر كانون الأول (ديسمبر) من عام 1955، كان هناك أكثر من 260 توقفاً عن العمل. هذه الحالة النضالية كانت في صالحي.

في 19 حزيران 1955 هدد «اتحاد عمال مجلس المدينة» بمسيرة تطالب بمدفوعات متخلفة من السنة الفائتة. وهدد «الاتحاد» بدوره باستعارات طرد، واستئجار عمال متعاقدين للقيام بالخدمات الضرورية إذا تقاعس اتحاد العمال. وأخفقت المباحثات لحل النزاع وبدأ الاضراب في 17 آب. وبعد ثلاثة أيام طلب مني الاتحاد أن أكون مستشارهم القانوني. كان الأعضاء من العمال المياومين الهنود بالدرجة الأولى، معظمهم يعمل في التنظيف وجمع القمامة. كانت نقابة كبيرة يبلغ تعداد أفرادها بضعة آلاف، وكان رئيسها هندي ذكي ولكنه غير متعلم يدعى سوبياه. وكانت قد وقعت بعض الأحداث المقيتة التي تطورت إلى عنف.أخبرتهم بأنه يشرفني أن أعمل معهم، ولكنني أصررت على أن يتم الإضراب بطريقة سلمية. ووافقوا على ذلك، وكانت المحادثات بناءة.

بعث الحاكم بتقرير في 8 أيلول إلى لينوكس بويد جاء فيه:

«حدث أن مرتْ فترات قلقة من المشاجرة بطريقة مألوفة ولكنها توقفت فجأة بعد أيام قليلة. ليس من المؤكد أن يعود الفضل في ذلك إلى لي كوان يو، ولكن قد يكون ذلك محتملاً» (كنا قد توصلنا إلى اتفاق في 7 أيلول). «خلافاً للتوقعات.. لم يفشل الإضراب وحصل الاتحاد على تنازلات أساسية... كان ثمة سببان لهذه النتيجة. أحدهما ضعف مجلس المدينة.. والسبب الثاني تدخل لي كوان يو أمين عام حزب العمل الشعبي، بوصفه المستشار القانوني للاتحاد. كان تدخله في الواقع مفيداً لكلا الجانبين، ولعله حسَّن موقفه الشخصي كنتيجة لهذه التسوية».

طريقتي في المعارضة الدستورية، والعمل ضمن القانون كانت على النقيض من عمل الشيوعيين، وقد حصلت على نتيجة مفيدة لذلك. ولكن لولا تجاوز الشيوعيين للقانون واستخدامهم للعنف لما كانت أساليبي ناجحة. وكان الخيار الوحيد غير المريح الذي أقدمت عليه أنني جعلتهم مقبولين لدى البريطانيين. وكما حدث في المالايو لم يكن ثمة إرهاب ضد البريطانيين، ولولا هذا لما حصل "التونكو" على الاستقلال. لقد كان البديل غير المقبول للشيوعيين هو ما جعل الأساليب الدستورية في الإزالة التدريجية والسلمية للسلطة الاستعمارية أمراً مُجدياً ومقبولاً لدى القوميين والاستعماريين. وفي الهند ما قبل الحرب، حيث لم يكن هناك تهديد شيوعي، استغرقت الأساليب الدستورية في المقاومة السلمية بضعة عقود إلى أن حققت النجاح.

وفيما كانت النقابات مستمرة في الهياج والغليان مزدادة قوة، كان مارشال يثير أزمة سياسية إثر أخرى، كان لديه براعة في إثارة الأزمات، ففي غضون الإضرابات والفوران النقابي في الأوساط العمالية اصطدم بالسير روبرت بلاك حول طلبه في إحداث أربع مناصب لوزراء من الدرجة الثانية، وعندما عرض الحاكم الموافقة على إحداث منصبين فقط، قرر مارشال أن ينقل النزاع إلى العلن. وادعى أن الحاكم ليس له الحق في تجاهل نصيحة الوزير الأول، وهدد

بالاستقالة إذا لم يُستشر قبل اتخاذ أي قرار. وطلب أيضاً أن تتمتع سنغافورة بحكم ذاتي كامل. وكانت إجراءات الطوارئ قد انتهى تاريخها في 21 تموز (يوليو)، ولكن الحاكم مددها ثلاثة أشهر أخرى، على أن يقترن ذلك بموافقة «الجمعية» في اجتماعها القادم: وكان الثمن الذي طلبه مارشال للموافقة على التمديد أن يمنح البريطانيون سنغافورة حكماً ذاتياً «في أقرب فرصة ممكنة».

اتسمت وقائع اجتماع «الجمعية» في 22 تموز بالطابع اللامسؤول الذي تناور به الأحزاب السياسية. إذ قال مارشال: إن إعطاء سنغافورة الحكم الذاتي مسألة مبدأ دستوري. وفي نهاية كلمته المثيرة ضد الحاكم والاستعمار، التفت إليّ طالباً مني الموافقة على تأييد خطوته. وما كان بوسعي بالطبع أن أرفض شرف هذه الموافقة!

انفض اجتماع «الجمعية» في 22 تموز. وعندما عادت إلى الاجتماع بعد ثلاثة أيام، قام عضو «الحزب التقدمي»، ليم كون تيك بمحاولة للالتفات حول مارشال وحولي، وقال: دعونا.. نطلب تحويلاً كاملاً للسلطة بحيث نستطيع نحن، ونحن فقط، أن نكون مسؤولين عن شؤوننا ومصيرنا، وألا تكون الحكومة البريطانية بعد اليوم مسؤولة عنا، وبالتالي قدم تعديلاً بإحلال «الاستقلال» محل «الحكم الذاتي». بمعنى آخر إنه كان يريد «الاستقلال» الفوري، وكان «التقدميون» عادة يمثلون الاعتدال، وسياسة الخطوة بخطوة وصولاً إلى الاستقلال. ولكن بهذه المناورة المفاجئة ظهروا بمظهر أكثر راديكالية من «الجبهة العمالية» و«حزب العمل الشعبي» ـ PAP وعلّقت على ذلك بقولي: لقد استمتعنا اليوم بمشهد «الفأر الذي تحول إلى أسد».

رُفض التعديل ولكن أجيز المشروع الأصلي بالحكم الذاتي الفوري، مما يشكل مجابهة للينوكس بويد، الذي كان من المقرر أن يصلَ بعد أسبوع لاحق. أما «الحزب التقدمي» فقد أظهر نفسه بمظهر الحزب الذي لا يُعول عليه. ولم يعد الآن في سنغافورة ما يسمى جناح يميني متماسك ومترابط منطقياً، أو حزب وسط.

وصل لينوكس بويد إلى سنغافورة، وقابل مارشال وغادر إلى الملايو. وفي 2 آب (أغسطس) قرأ رئيس المجلس أمام «الجمعية» رسالة من الحاكم تقول: إن وزير المستعمرات قد ناقش الأمور مع رئيس الوزراء، وإن المناقشة ستستمر عندما يعود من المالايو في 15 آب. وأما مارشال الذي تأثر عاطفياً بحديثه مع لينوكس بويد فقال: في الوقت الحاضر ربما ينبغي أن نتوقف هنا ونلتفت إلى أعمالنا العادية. لم أوقفه، وإنما أوضحت أنه لا يوجد في رسالة الحاكم ما يغير الموقف مادياً منذ اجتماعنا الأخير. ثم انتقلت إلى معارضة مارشال في شكر الحاكم، وأيدتني «الجمعية». وأصيب مارشال بالإحباط.

ولكن في 18 آب قرأ رئيس الجلسة رسالة أخرى من الحاكم، والتي تفيد بأنه سيعمل بالتنسيق مع مشورة رئيس الوزراء باستثناء تأجيل الجمعية أو حلها. وأفادت الرسالة أيضاً أن الحكومة البريطانية ستكون سعيدة بأن تستقبل في لندن في وقت مناسب وفداً يمثل سنغافورة لدرس المسائل الدستورية. وصرح مارشال: «هذا حقاً يوم سعيد لسنغافورة. إنه يضع حداً للمرحلة الأولى من نضالنا من أجل الحرية». وأضاف أيضاً: إن رئيس الجمعية «يطلب من الحاكم باسمهم أن يشكر وزير الخارجية على لفتته العاطفية تجاه أمانينا». لم أقبل هذا وهددت بالخروج ـ كنت أريد بعض الوقت للتفكير في التزامات رسالة الشكر هذه. غضب مارشال. وأخفقت خطوتي ضد الاقتراح.

كنت أمزح مع مارشال ولكن ثمة أمور جدية قيد البحث. فقد ظل مستقبل اللغة والثقافة والتربية الصينية مشكلة خطيرة. وكانت الحكومة، بالصدفة، قد شرعت بعملية مشاورات هادئة وفرت صيغة للعمل بدون اطلاع الجمهور. وإذا لم نفعل ذلك فإن أي نقص في أي حل ستتناوله الصحافة الصينية وستجعل موضوع الخلاف مادة للدعاية.

التوصيات التي صدرت عن اللجنة المختصة كانت تتضمن اجراءات جيدة بالنسبة للتربية الصينية على المدى الطويل، كما أنها جيدة لتحقيق التناسق في مجتمع متعدد الثقافات. ولكنها كانت تهدد مستقبل الشيوعيين. فقد كان ما

يقارب 90% من جميع الشباب اليافعين الصينيين من الناطقين بالصينية ـ هذا إذا كانوا متعلمين. ولكن عدد الأطفال الصينيين الذين يلتحقون بالمدارس الإنكليزية كان في ازدياد مستمر منذ عام 1948، أي عندما أُعلنت حالة الطوارئ. وفي عام 1950 كان 25 ألفاً من الطلاب الصينيين في المدارس الصينية والطلاب الصينيين في المدارس الإنكليزية، ولكن في عام 1955 تغيرت النسبة، حيث زاد عدد الطلاب الصينيين الذين يدرسون في المدارس الإنكليزية بمقدار 5 آلاف طالب عن عددهم في المدارس الصينية. وعلى الرغم من أن الشيوعيين لم يكونوا على اطلاع بالأرقام الدقيقة، ألا أنهم كانوا يَعون هذا التوجه، ولما كان هذا التوجه يزعزع أرضيتهم فقد كان عليهم أن يقفوا في وجهه. وهكذا أصبحت المعركة من أجل المحافظة على التربية الصينية أكثر حدة واحتداماً بالنسبة للحزب الشيوعي.

أما المشكلة بالنسبة للحكومة ولغير الشيوعيين في «حزب العمل الشعبي» (PAP) كانت معقدة، لأن الثقافة الصينية كانت مهمة وعزيزة على قلوب كثير من الآباء، لذلك لم يكونوا متحمسين لإدخال اللغة الإنكليزية في المدارس الصينية. كانت نفقات هذه المدارس الإدارية تدفعها الحكومة، وبالمقابل على هذه المدارس أن تنصاع لتعليمات الحكومة فيما يتعلق بالمناهج والنظام. وعلى أية حال كانوا يريدون أن يكون التعليم باللغة الصينية تماماً.

والحق أن نصفهم كان يريد أن يكون التعليم باللغتين. وكان كثير من زعماء اللجان الإدارية في المدارس الصينية قد سجلوا أولادهم في المدارس الإنكليزية، ووفروا لهم دروساً باللغة الصينية بعد الظهر، وذلك كي يتقنوا اللغتين. وفي الوقت نفسه حضّوا الآباء الآخرين على إرسال أولادهم إلى مدارس صينية من أجل المحافظة على تقليد المنح الصينية التقليدية. لم يكن ثمة سبيل لإرضاء كل واحد. لهذا كانت الحكومة بحاجة إلى تقرير من اللجنة، التي كنت أمثل فيها حزبي (PAP) والتي كانت تضم جميع الأطراف، وتشاورهم بحيث نكون ملتزمين

في مصافحة انتصار مع رئيس الوزراء ديفيد مارشال خارج مبنى «الجمعية» في تموز 1955، بعد أن أجازت «الجمعية التشريعية» اقتراحه الداعي إلى حكم ذاتي فوري ودستور جديد.

جميعاً بالتعهد بمهمة المحافظة على قاعدة «لغوية» بالصينية، وهذا ما منحني فرصة لصياغتها، ولكنه عرضني لحظر محاربة الحزب الشيوعي لي على مسألة تعتبر حيوية لبقائه.

وجدت، سواء أكان ذلك عملياً أم لا، أن النهج الذي يمكن الدفاع عنه سياسياً، وهو منهج ثلاثية اللغات: المالاوية كونها لغة قومية ومستقبلية للملايو، والإنكليزية كونها لغة التجارة العالمية والعلوم، ولغة الماندرين بوصفها اللغة الأم للصينيين والتاميل، والهندية أو البنجابية للهنود. وكان رئيس لجنة جميع الأحزاب تشيو سوي كي، وزير التربية، وكان أعضاء اللجنة السبعة الآخرين يضمون مالاوياً، عبد الحميد بن حاجي جمات، وزير الحكم المحلي. وقد عملت مع هذين الوزيرين على مدى تسع شهور، وكان كلاهما متفقاً مع آرائي، وقد وضعنا معاً تقريراً يمكن أن يقبل به الجميع. وقد تضمن التقرير توصية بإعادة كتابة الكتب المدرسية باللغة الصينية، والتي كانت حتى ذلك الحين مستخدمة، في حين كانت ما قبل الحرب تحت حكم «الكومينتانغ».

كان من الطبيعي أن يتحمس أنصار اللغة الصينية للغتهم لأسباب عدة أبرزها الأسباب السياسية. وقد حاول هؤلاء أن يُكتلوا الجمعيات والاتحادات والنقابات الصينية إلى جانبهم. وفي النهاية كان لا بد من عقد اجتماع يضم الأطراف المعنيين للوصول إلى نتيجة. وكانت الغاية من الاجتماع مناقشة مذكرة تُرفع إلى الحكومة، تدعو إلى المساواة ما بين المدارس التي تدرس الصينية والمدارس التي تدرس الإنكليزية. وكان يفترض مسبقاً ألا يكون هناك جدال أو حلول جديدة، بل التصويت على القرارات التي يتم الاتفاق عليها. وقدم ليم مذكرته التي لم يطالب فيها بالمساواة ما بين المدارس الصينية والمدارس الإنكليزية فحسب، بل طالب كذلك بمخصصات مالية حكومية لبناء مدارس صينية، وتعليم مجاني لمدة ست سنوات، وحق تشكيل جمعيات طلابية ذاتية (أي فروع «لاتحاد طلبة المدارس المتوسطة الصينية»). وبعد أخذ وجذب بين أنصار الصينية المتعصبين وبين المعتدلين الذين يمثلون ثقافة اللغات الأخرى، تمَّ التوصل إلى اقتراح.

كان الاقتراح بسيطاً: هو أن تقوم مدارس اللغة الإنكليزية بتدريس اللغة الأم كذلك ـ أي تدرس الصينية للصينيين، والمالوية للمالويين، والتاميل أو بعض اللغات الهندية الأخرى للهنود. والطلاب في المدارس الصينية يتعلمون أيضاً إما الإنكليزية أو المالاوية في المدارس الابتدائية، ويدرسون كلتا اللغتين في المدارس الثانوية. أما المدارس المالاوية فتدرس الإنكليزية أيضاً في المرحلة الابتدائية، وتدرس لغة ثالثة في المرحلة الثانوية إذا أراد الطلاب ذلك.

هذه المشادة حول اللغة والتعليم كانت صراعاً من أجل السلطة. فطبقات التجار الصينيين. وقادة العشائر وكبار أثرياء غرفة التجارة كانوا يريدون «جمعية تشريعية» يتحدث فيها ممثلوها إلى السكان الصينيين بلغة صينية سلمية وبطلاقة وليس بلغة إنكليزية ركيكة، وذلك من أجل زيادة نفوذهم وثرواتهم. وكانوا قد قدموا مذكرة من أجل تشريع متعدد اللغات إلى «لجنة رينديل» (والذي رفض) وأيّدنا تلك المقترحات في وقت مبكر يعود إلى تشرين الثاني (نوفمبر) 1954، قبل أن ينطلق «حزب العمل الشعبي» (PAP) رسمياً. الآن توصي «الغرفة الصينية» مرة أخرى بأن تكون الصينية إحدى اللغات الرسمية.

إحدى المشكلات التي لا يمكن تجنبها في مجتمع متعدد اللغات والأعراق، هي كيفية تنظيم تشريع عملي وحكومة بدون إيجاد «برج بابل» فكل جماعة عريقة لها لغة رئيسة، وأولئك الذين يهاجرون إلى أرضها عليهم أن يتعلموا تلك اللغة سواء أكانت الإنكليزية في الولايات المتحدة وكندا، أم الفرنسية في إقليم كيبك. ولكن عندما أسس ستامفورد رافيلز سنغافورة عام 1918، خطط في أول مخطط للمدينة عدة مناطق بحيث تعيش الأعراق المختلفة، وحتى أصحاب اللهجات الصينية المختلفة في مناطق متفرقة. ثم جلب البريطانيون أعداداً وفيرة من الصينيين، والهنود، والمالاويين، وكلهم يتحدثون بلغتهم الخاصة، وتركوهم يتدبروا شؤونهم.

تحت الضغط الشعبي أصدر مارشال قراراً في 9 شباط (فبراير)1956 ينص على أن «الجمعية ترى لأغراض النقاش العلني أن تكون لغات الجمعية هي الإنكليزية، والمالوية، والماندرين ولغة التأميل وأنه تم اختيار لجنة لدراسة

التقرير ولاتخاذ التوصيات الضرورية». عرف مارشال أنه بهذه الخطوة سيكون هامشياً. وتذكر ما قاله أحد المالاويين: «مع تعددِ اللغة فإنك تسلمنا إلى الصينيين. سوف يبتلعونا.. أجابه: «نعم يا سيدي، على الإنسان أن يحترم قاعدة الأكثرية. إن الصينيين يشكلون 76% من تعداد سكاننا. دعنا لا نتجنب هذه المسألة». وهذا ما كان يمثل شخصية مارشال فعلاً ـ نصف مثالي ونصف (أو ربما أكثر من النصف) انتهازي، يتطلع إلى أن يبرهن أنه أكثر صينية من الصينيين، وبالتالي يكون مقبولاً كبطل لهم، على الأقل لفترة ولاية أخرى. والهتافات الحماسية للمتحدثين الصينيين أثناء الانتخابات أظهرت بدون شك أن أي واحد يصوت ضد التعدد اللغوي من أجل أن يستبعد التعدد اللغوي من «الجمعية» سوف يخسر الأصوات بالتأكيد.

قلت في خطبتي: عندما نتخذ هذه الخطوة اليوم ينبغي أن نفهم أنه لا عودة عنها.. ينبغي أن نتذكر أن ثمة التزامات أعمق وأوسع..» كان هذا في شباط (فبراير) عام 1956، وتوقع كثيرون أن تزدهر اللغة الصينية والإندونيسيا وآدابهما، ونظراً لأن الدولتين ستصبحان قويتين وقادرتين في غضون فترة تتراوح بين 10 ـ 20 سنة. ولم يكن هذا ممكناً لا من الناحية السياسية ولا السيكولوجية، إذ غض الناس على هاتين اللغتين، ثم نقبل، بصيغة معادية للاستعمار، بأولوية اللغة الإنكليزية وتفوقها. كنت في الحقيقة أعي أن افتقاري إلى معرفة اللغة الصينية، فضلاً عن امتلاك ناصيتها، كان نقطة ضعف كبيرة لدي من الناحية السياسية. وأتذكر من تجربتي الشخصية:

«أرسلت إلى مدرسة بريطانية كي تهيئني للانتساب إلى جامعة بريطانية بحيث أصبح بعد ذلك رجلاً مثقفاً مكافئاً لأي رجل بريطاني، نموذج الكمال. لا أعرف إلى أي مدى نجحوا بذلك. كبرت وتخرجت أخيراً. وفي النهاية، أشعر ـ حتى قبل أن أدخل معترك السياسية بفترة طويلة... أن مجموعة القيم كلها كانت خاطئة جذرياً».

ثم اقتبست من نهرو قوله: إنه كان يبكي لأنه لم يكن يتحدث لغته الأم بمستوى تحدثه بالإنكليزية. «أنا رجل عاطفي بدرجة أقل. فأنا عادة لا أبكي أو أشد شعري أو أمزق قميصي، ولكن هذا لا يعني أن شعوري تجاه اللغة يقل عن شعور نهرو. لن يذهب ابني إلى مدرسة إنكليزية. ولن يكون انموذجاً لرجل بريطاني. ولكنني آمل بالطبع أن يعرف الإنكليزية معرفة كافية بحيث يتحدث مع أبيه في شؤون أخرى غير الطقس».

ذلك ما كنت أشعر به. وهذا ربما لا يوافق من يتحدثون الصينية. فعلى الرغم من أن ليم تشين سيونغ، والحزب الشيوعي الملاوي (MCP) لم يكونا راضيين عن التقرير نفسه، فإنهما لا يستطيعان أن يهاجماني بشكل مكشوف على تأييدي له (29 نعم وبدون أي اعتراض) بدون أن يثيرا استياء داخل «حزب العمل الشعبي» (PAP).

كان الحزب الشيوعي قلقاً تجاه النظام الذي قد تفرضه الحكومة على المدارس الصينية. كانوا يخشون أن «يساء استخدامهم من قبل مجموعات سياسية للإحاطة بحكومة دستورية بطريقة غير دستورية». والأسوأ من ذلك أن معرفة باللغة الإنكليزية سوف تفتح أمامهم عالماً مختلفاً تماماً من خلال الصحف والمجلات والأدب والأفلام. سوف يرون العالم بعينين، وبرؤية واضحة، بدلاً من أن يروه بعين واحدة من خلال مجهر صيني. كان عليَّ أن أتخذ موقفاً لا يسمح للشيوعيين بإدانتي أي بوصفي صيني غير مثقف. وإذا ما اتخذت خطوة خاطئة في هذا السبيل فسأخسر كل شيء. فإذا كانوا يستطيعون أن يظهروا أنني أفضّل الإنكليزية على الصينية كوسيلة أكثر أهمية للتعليم في المدارس، فسيكون من المستحيل بالنسبة لي أن أحافظ على احترام وتأييد الجماهير التي تتكلم الصينية.

في أواسط عام 1955 أرسلت لونغ، وكان عمره ثلاث سنوات ونصف، إلى مدرسة أطفال تدعى «نانيانغ» التي تُعلم باللغة الصينية. وعندما زرت المدرسة فيما بعد، مع جميع أفراد لجنة الحزب، صورته الصحف الصينية في المدرسة،

مما عرّف الناس جميعاً أنه يدرس اللغة الصينية. لقد أعطاني إصراري أن يلتحق أولادي الثلاثة بمدرسة يتعلمون فيها لغة وحضارة أجدادهم، مصداقية لم يستطع الشيوعيون أبداً أن يطعنوا بها. وبعدما أنهى أولادي مرحلة الحضانة والمرحلة الابتدائية، التحق اثنان منهما بالمدرسة الثانوية الكاثوليكية. فيما التحقت ابنتي لينغ بمدرسة نانيانغ الثانوية للبنات. كان تعليمهم بالصينية تماماً، ولكن لأنهم كانوا يتحدثون الإنكليزية في المنزل مع أمهم فقد باتوا متمكنين من اللغة الإنكليزية. وبتعلمهم للغة الملايو منذ سن السادسة فقد تمكنوا من امتلاك ناحية لغة ثالثة. وفيما كان الناس في سنغافورة مشغولين بترّهات مارشال وأزماته. وبالاضطرابات التي تحدث في المدارس والمصانع، كانت الأمور تجري في المالايو على نحو يعيق مستقبل الجزيرة.

13. إخفاق تام في لندن

كان تنكو عبد الرحمن زعيم الحزب المالاوي UMNO في اتحاد الملايو، معارضاً لديفيد مارشال. كان مستقيماً ثابتاً على المبدأ ورجلاً يُعتمد عليه وأهلاً للثقة. لم يكن يتظاهر بالذكاء ولكنه كان يفهم الناس جيداً. والأهم من ذلك كله أنه كان يفهم معنى السلطة. كان والده سلطان كيداه، وتعلم من خلال حكم أبيه كيف يسوس الناس وكيف يجعلهم يفعلون ما يريد. وكأمير ملكي لم يكن يحظى بتأييد كامل من جانب حكام ولايات المالايو التسعة في «الاتحاد» الذين كانوا يعارضون اقتراح الحكومة البريطانية بإقامة اتحاد الملايو عام 1946. كان موالياً للبريطانيين ومعادياً للشيوعيين. أمضى تسع سنوات من شبابه في إنكلترة في الدراسة، منها ثلاث سنوات في دراسة القانون في جامعة كيمبردج، حيث نال شهادة، واجتاز بعد عدة محاولات امتحانات الحقوق. كان يستمتع بحياته، وكثيراً ما حدثني عن الأوقات السعيدة التي أمضاها في بريطانيا. وقد وجد فيه البريطانيون زعيماً يتمتع بمساندة قوية من المالويين ودعماً جيداً من الصينيين والهنود.

في شهر تموز (يوليو) من عام 1955 أجرى «الاتحاد» انتخابات عامة حصل فيها تحالف UMNO واتحاد الصينيين المالاويين MCA، والمؤتمر المالاوي الهندي MIC على الأغلبية الساحقة. وأصبح التونكو وبعض زملائه أعضاء في «المجلس التنفيذي للبعثة البريطانية العليا»، وكما هو الحال في سنغافورة أصبح لديهم الآن حكم ذاتي محدود، ولكن خلافاً لوزرائنا كانوا سعداء بالتعاون مع المفوضين الاستعماريين. والفارق المهم الوحيد أنهم كانوا يحاربون أعمال التخريب، التي يقوم بها رجال حرب العصابات الشيوعيون، وهذا ما لا يتم تحقيقه بدون مساعدة القوات البريطانية، والأسترالية، وقوات نيوزيلاندة، وقد اشترط البريطانيون أن حالة الطوارئ لن تنتهي قبل أن يتم الاستقلال.

وفي كانون الثاني من عام 1956 ذهب التنكو إلى بريطانيا لحضور مؤتمر دستوري، وفي طريقه من سنغافورة إلى إنكلترة على متن السفينة الإيطالية «آسيا» أعلم رجال الصحافة والإعلام أنه لم يتفق مع مارشال أن تحظى سنغافورة بوضع متساوٍ في أي تحالف بين البلدين. إذ لو حصلت سنغافورة على وضع متكافئ «فسوف تهدد المالاويين في عقر دارهم. لقد قسّم البريطانيون المنطقتين كي يمحوا بالدرجة الأولى مصالح المالاويين في الاتحاد». ولكنه وافق مع حزب (PAP) على فتح باب المباحثات بين زعماء سنغافورة و«الاتحاد» حول تحالف في المستقبل. وأوضح للصحافة بأن «التحالف في المستقبل» يعني «اندماجاً في المستقبل» كما ذكرت صحيفة «سنغافورة ستاندارد». ولكن راجا كان على خطأ.

ما كان يدور في ذهن تنكو كان أمراً مختلفاً، فهو لم يكن يفكر في اتحاد منطقتين، بل كان يفكر في «تحالف» أي ترتيب بين دولتين منفصلتين. لم يكن يريد سنغافورة كولاية في الملايو لأنها سوف تقلب التوازن العرقي في الملايو. كما أنه لم يكن يريد لسنغافورة أن تكون دولة مستقلة معادلة للملايو. كان يريد للبريطانيين أن يبقوا لمراقبة سنغافورة مع حكم ذاتي لها، ومع تحالف مع حكومة سنغافورية غير مستقلة. ولسوء الحظ أن الأمور كانت تجري في اتجاه آخر، والبريطانيون كانوا يعرفونها، أما تنكو فلم يكن يعرفها.

زار ألان لينكوس ـ بويد كولا لامبور في آب (أغسطس) 1955 لتقويم الموقف ولتقييم شخصية تنكو نفسه. وقد وجد في تنكو رجلاً يمكن الوثوق به، وحدد له تاريخ الاستقلال، وهو 31 آب 1957. والأكثر من ذلك، كان من بين النتائج المباشرة للمؤتمر الدستوري الذي عقد في شباط 1956، أن تنكو حصل على جميع الحقائب الوزارية في «المجلس التنفيذي» من المسؤولين البريطانيين، وأصبحت الملايو عملياً ذات حكم ذاتي.

أعاق التقدم السياسي للاتحاد تطلعات سنغافورة. فحتى ذلك الحين كانت هناك ثمة فرصة بأن لا تحصل الملايو على الاستقلال قبل أن تحصل عليه سنغافورة أولاً. الآن أصبحت سنغافورة خارج اللعبة. كانت خطة البريطانيين إيجاد مالايو مستقلة يكون الملاويون هم المسؤولون فيها ـ فالمالايو ستظل بحاجة إليهم لبعض الوقت لمساعدتهم في حكم البلاد ومحاربة الشيوعيين ـ في حين أنهم احتفظوا بسنغافورة كمستعمرة بسبب أهميتها الاستراتيجية لبريطانيا، ولكل من أستراليا ونيوزيلانده. وكان من المتوقع أن تحصل سنغافورة على حكم ذاتي مع شكليات الاستقلال كافة، ولكن بدون سيادة حقيقية، وستظل الكلمة الأخيرة في شؤون الدفاع والأمن والسياسة الخارجية بيد البريطانيين.

كان رد فعل مارشال على هذا متوقعاً: كان متحفزاً للضغط حتى أقصى حد ممكن في المباحثات الدستورية المقرر عقدها في لندن في شهر نيسان (إبريل). وإذا أتيحت له الفرصة فسيسعى للحصول على سيادة كاملة. إنه يريد استقلالاً كاملاً عن البريطانيين وبذا يتساوى مع تنكو. ولكن سنغافورة ستوقع اتفاقية تضمن للبريطانيين قواعدهم، وتعطيهم الكلمة الحاسمة في الشؤون الخارجية. إذ كان يريد تحقيق ذلك بطريقتين. وبقليل من التشجيع من أصدقائه، بمن فيهم أونغ اينغ غوان، مسؤول الشؤون المالية في حزب PAP، شرع بما يسمى "بأسبوع ميرديكا" ليجمع تواقيع من الجمهور ويعرض التأييد الشامل من جانب الجمهور للاستقلال (ميريديكا في المالايو) وله شخصياً بوصفه زعيماً لهذا الاستقلال. ولكن لما كانت حكومته ضعيفة، كما هو معروف، فقد قرر أن يأخذ معه إلى لندن وفداً يتألف من ممثلي جميع الأحزاب ليظهر وحدتهم بشأن هذه المسألة.

وصل إلى هناك في شهر كانون الأول (ديسمبر) 1955، وقد كان متشجعاً للغاية بعد لقاءاته مع أعضاء البرلمان البريطاني والوزراء، حتى إنه أخبر الصحافة أنه لن يكون هناك «سذج استعماريون»، وهو أمر ظن أنه يستحق التكرار في «الجمعية التشريعية» عند عودته إلى سنغافورة. كذلك حثّ جميع

الأحزاب على الموافقة على دعوة وفد من أعضاء البرلمان من حزبي المحافظين والعمال إلى زيارة سنغافورة أثناء «أسبوع ميريديكا» الذي كان مقرر أن يبدأ يوم الأحد، 18 آذار (مارس) عام 1956 في مطار كالانغ. وكان قد تمّ جمع 170 ألف توقيع حتى ذلك الحين، وإعداد استقبال حافل لأعضاء وفد «مجلس العموم» كبرهان على رغبة سنغافورة في الاستقلال.

جاء ستة بريطانيين من أعضاء حزب العمل يترأسهم هربرت موريسون، الذي كان وزيراً للداخلية في أول حكومة عمالية في 1945 ـ 1950 والشخص الثاني بعد رئيس الوزراء كليمينت أتلي. قابلناهم بصورة غير رسمية، وأمضيت ليلة واحدة معهم في نادٍ ليلي في بناء الكابيتول. أما الحدث الرئيسي فإنه كان يشبه رقص الستوبيتز، وهو ما لا يناسب وفداً جاء لغرض مهم يتعلق بتقدير نضجنا، ورغبتنا التواقة إلى الاستقلال وقدرتنا على تحقيقه. ولكن لدهشتي كان موريسون يمتع نفسه. لم يكن مقتنعاً بوجود رغبة عارمة في الاستقلال لدى جماهير سنغافورة، ولكنه لاحظ بذكاء وجود مجموعة سرية قوية حسنة التنظيم تناور النقابات والطلاب وغيرهم. لعله كان يريدني أن أحتج ولكنني لم أحرره من أوهام أفكاره.

وعندما حلّ يوم احتفال ميريدكا، انتقلت إلى مكان الاحتفال بالسيارة مع تشو، وأوقفت السيارة على مسافة من بناء المطار، ومشينا إلى المنصة. حيث كنت أقف ويقف معي تشين شي وأونغ اينغ غوان. وكان هناك جمهور غفير من المنتظرين وصل تعداده إلى 25 ألفاً. وعندما وصل مارشال توجه مباشرة إلى المنصة مع بعض وزرائه. واندفع الجمهور نحوه، واقترب بعضهم من المنصة، وحدث نوع من الفوضى والهرج والمرج. ولم نستطع أنا وليم تشين سيونغ تهدئة الموقف. لم يكن باستطاعة أحد أن يسيطر على الجمهور، الذي راح يقذف نوافذ المطار الزجاجية بما تصل إليه أيديه.

كذلك ذهبت جهود رجال الشرطة عبثاً في السيطرة على الفوضى وهياج الغوغاء. لم تحدث خسائر في الأرواح أو أضراراً جسيمة في الممتلكات. ولكن المشهد أعطى فكرة لأعضاء مجلس العموم الستة الزائرين حول هشاشة الوضع السياسي في سنغافورة، وأقنعهم أن الحكومة، حتى مع وجود أمين عام بريطاني، ورئيس للشرطة بريطاني، لم تكن ذات سلطة محكمة. ولم يكن هذا الوضع مجانباً للحقيقة، فسنغافورة تحت قيادة مارشال لم تكن مثل المالايو تحت قيادة تنكو. لم تكن «حكومة جبهة العمال» تتمتع بتأييد قوي. كانت كما كتب روبرت بلاك إلى لينكوس بويد «إنها أشبه بالفطر له رأس وجسم نحيل ولا جذور له». وصفت رسالة بلاك التهديد الشيوعي في الجزيرة بأنه لا يشكل خطراً كبيراً لأنه ظاهري أكثر مما هو واقعي، أما الإجراءات التي اتخذت للمجابهة ـ اعتقال بدون محاكمة، غاز مسيل للدموع، خراطيم المياه، عدم تسجيل النقابات، حظر الجمعيات التي تستخدم لأغراض تخريبية ـ كانت تعالج أعراض المرض ولا تشفي المرض نفسه. كتب بلاك أنه على الرغم من أن قوات الأمن تستطيع أن تحول دون انهيار الخدمات العامة أو الاضطرابات الكبيرة فإن أساليبها أفرزت في الوقت نفسه شبيبة أكثر عداوة للحكومة والبريطانيين تنضم إلى منظمات (CUF الجبهة الشيوعية الموحدة).

كنت قد ناقشت عدة مرات سابقاً مع مارشال بشكل خاص قبل أن يضع على جدول الأعمال القرار الذي يتضمن أنه طالما أن بريطانيا لها الحق في الإملاء على سنغافورة ما ينبغي عمله في شؤون الدفاع، فإن سنغافورة لن تكون مستقلة مهما كانت الترتيبات. ولكنه لم يستطع التخلص من هدفه ـ المظهر والشعور بالاستقلال. قلت: إن القرار كما اتُخذ كان «تأكيداً بأننا متأكدين أن البريطانيين لن يمنحونا استقلالاً كاملاً لأن هذا من شأنه بعدئذٍ أن يعني قلب الترتيبات الدولية والقواعد الدولية في استراتيجية الدفاع العالمي».

حاولت جهدي أمام المؤتمر في لندن أن أؤكد على أن الوضع القادم لن يفتح الأبواب أمام استلام الشيوعيين للسلطة، بل سوف يعطينا فترة أوسع للعمل من أجل مصلحة الشعب، وأن نجعل البريطانيين ظهيراً لنا إذا ما حاول الشيوعيون أن يكون لهم اليد العليا في السلطة. وأن ليم تشين سيونغ لم يفهم أن ما يقرب من الاستقلال بدون سيادة يعني أن السيادة ستكون للحكومة البريطانية. ما كان يريده هو ببساطة أن يحصل على وضع يمكن الشيوعيين من أن ينمو أو يزدادوا قوة.

كانت بريطانيا قد بدأت تنهض من فترة ما بعد الحرب القائمة. وبدت لي لندن أكثر نظافة وأناقة عما كانت عليه عندما غادرتها عام 1950. كان هناك الكثير من السيارات في الطرقات. كما لاحظت نوعاً من المساواة العرقية الجديدة. إذ لم أجد إلا القليل جداً من زنوج غرب الهند يعملون في الحافلات، ولم يعد يشار في الصحف إلى الآسيويين بهذه الصفة، وباتوا يحظون باحترام. لم أفهم لماذا تحسن وضعهم. أمضيت كثيراً من الوقت مع كينغ سوي وحاشيته من الملازمين، وهم طلاب ساعدوه سابقاً في صراعه وهزيمته لجون ايبر ومجموعته الشيوعية في «منتدى المالايو». وكان من بينهم جو بيلاي، الذي أصبح مدير طيران سنغافورة، وتشوا سيان تشين الذي أصبح وزيراً للداخلية. وقد شجعني كينغ سوي بحصوله على رجال جيدين يستطيعون أن يخدمونا عندما يعودون إلى سنغافورة.

كما قام بعدة اتصالات مع «الجمعية الفابية» و«حزب العمال». وقد رتب لي كينغ سوي غداء عمل مع عدد من شخصيات حزب العمال البارزة، كما رتب لي لقاء مع أنورين بيفان، الوزير السابق والخطيب العظيم. وأتيحت لي الفرصة أن ألتقي في كيمبريدج ببعض أصدقائي وأصدقاء تشو ممن أصبح كثير منهم يعمل الآن في المحاماة. وأعطوني فكرة عن مزاج المجتمع البريطاني بعد فترة الحرب القائمة، وهو المزاج الذي سيؤدي إلى قفزة الستينيات. واستطعت من خلال لقاءاتي الكثيرة أن ألاحظ بسرعة كيف تحول الساسة البريطانيون في تفكيرهم ومواقفهم.

ترأس مارشال وفد الحزب المؤلف من 13 عضواً، والذي يتضمن خمسة وزراء واثنين من مؤيدي حكومة الجبهة العمالية، وأربعة اشتراكيين أحرار (كان التقدميون والديمقراطيون قد اندمجوا في شباط) واثنين من حزبنا. طرنا في مجموعات متفرقة بطائرة شركة الطيران البريطانية BOAC التي استغرقت رحلتها ليلتين وثلاثة أيام للوصول من سنغافورة إلى لندن مع توقف ليلي في كولومبو وكراتشي.

غادرت في بداية نيسان كي أعطي نفسي الوقت لمقابلة كينغ سوي وتقويم الموقف من وجهة نظر بريطانية. سافر معي ليم تشين سيونغ الذي كان يشعر بشيء من الضياع. فقد كانت هذه أول مرة يغادر فيها البلاد. ولكنه كان أكثر خوفاً أن يكون بعيداً عن المخلصين له من أن يكون في بلد غريب.

قبل أن أغادر أنا وليم أصدرت بياناً رسمياً باسم حزب العمال PAP لشرح لماذا غيّرنا سياستنا: فقد أردنا الاندماج حتى قبل أن نصل إلى دولة ذات حكم ذاتي... ولسوء الحظ أن وزير الاتحاد الأول لم يوافق على اقتراحنا... الآن نسعى إلى أن التقدم السياسي الأقصى الذي نستطيع أن نحققه هو في سنغافورة وحدها، لكننا سنسعى إلى الاندماج ضمن الاتحاد.

أما الرحلات الجوية الوحيدة التي قمت بها قبل ذلك كانت إلى كولا لامبور والعودة في طائرة داكوتا ذات محركين. في تلك الأيام كان السفر جوياً متاحاً لقلة من القمة وهو لا يخلو من المخاطر. وكل رحلة كانت حافلة بتوديع الأصدقاء والأقرباء أو مؤيدي الحزب. كان جمهور من بضع مئات يأتي لوداعي ووداع ليم، وكنا نحييهم من سلمنا المتحرك قبل الدخول إلى الطائرة. أوضحت تماماً أن هدف الوفد «لم يكن تحقيق الاستقلال التام، بل تحقيق 75% من الحكم الذاتي مع حكم ذاتي كامل بعد خمس سنوات». كان ليم يقف بجانبي وكان متأكداً أن الصحافة قد فهمت ذلك جيداً ولن تسيء إلى موقف حزبنا.

كان صديقي وشريكي في الوفد ليم تشين سيونغ، خلافاً لأعضاء الوفد الآخرين الذين كانوا شبه منغلقين على أنفسهم، منفتحاً وواضحاً، ويحسن التصرف، وقد كرس نفسه لقضيته وهذا ما جعله يحظى باحترام وإعجاب الجميع.

كان المؤتمر بالنسبة لمارشال مسألة قانونية قبل كل شيء. أما أنا فقد اعتبرته مؤتمراً سياسياً بالدرجة الأولى. وقد لاحظ ليم أنني كنت أركز على الجوانب الأساسية، مثل مسألة السيادة. والمسؤولية عن الأمن والشؤون الخارجية، والدفاع، و«المجلس الأمني» ورئاسة هذا المجلس. لم أكن أنا وليم صديقين حميمين. ولكن كان ثمة احترام متبادل. كان يعرف أنني لست شيوعياً، وكنت أعرف أنه شيوعي. وهو يثق بي في شؤون المال، ويعرف أنني لا أكذب عليه. ولكنه لم يكن يثق بي في الأمور السياسية. تلك كانت طبيعة علاقتنا. لم يكن أحدنا يخدع الآخر. لم تكن لغته الإنكليزية قوية بحيث يستطيع التدقيق في وثائق المؤتمر ذات اللغة الرصينة. ولكنه كان يكتب تقارير مفصلة لا يعلم إلا الله لمن يكتبها. لعلها كانت انطباعاته عن بعض الأفراد وتقويمه لمواقفهم تجاه المسائل المهمة.

كنت ألتقي وأتناول طعام الغداء مع بعض أعضاء البرلمان البريطاني، من المحافظين والعمال. كان المحافظون يميلون إلى أن يكونوا أكثر مغامرة وأكثر اهتماماً بالعالم ككل، ومختلفين تماماً عن النواب العماليين الذين كانوا واضحين وجديين ولكنهم ضيقو الأفق. من بين دعوات الغداء التي ما زلت أذكرها، غدائي مع فيتز روي ماك لين Maclean وجوليان أميري AMERY. كان ماك لين مشهوراً بمآثره البطولية الحربية في يوغسلافيا التي احتلها الألمان، وكتب عن تجاربه وخبراته في كتاب بعنوان "متاريس المقاومة"، وهو كتاب ممتع، وكان أميري أيضاً يتمتع بشخصية متميزة. وقد تطورت معرفتنا إلى صداقة.

وكان هذان الصديقان مفيدين لي كثيراً في الستينيات عندما كان علينا أن نحارب الشيوعيين في سنغافورة، وكذلك عندما أصبحنا جزءاً من ماليزيا ومهددين بالقمع الجماعي من قبل المالاويين «الكبار». كانت إقامتي في لندن مبهجة ومفيدة. ولكن لا يمكن وصف المؤتمر نفسه بهاتين الصفتين.

قرأ مارشال، الذي كان مايزال في لندن، البيان الذي أصدرته حول التخلي عن سنغافورة، وظن أنني أنسف موقفه. هاجمني بمرارة وهو يخاطب 200 طالب مالاوي، محذراً إياهم من أنني أدعو الشيوعيين إلى الحزب (PAP) وأهيّء الطريق أمام الشيوعيين لاستلام السلطة في عام 1959 ولكنني لم أكن الشخص الوحيد الذي عاداه. ففي الجلسة الافتتاحية للمؤتمر تحدث وزير المستعمرات لينوكس بويد بخطبة قوية وهادئة وأوضح من خلالها موقف بريطانيا. وأشار إلى زيارة مارشال إلى لندن في شهر كانون الأول (ديسمبر) السابق وقال: إن رئيس الوزراء قد ابتعد عن التفاهم الذي تمّ التوصل إليه وهو أن سنغافورة ستحصل على حكم ذاتي داخلي فقط. «وبدلاً من ذلك نراه يسعى الآن إلى استقلال كامل. إن حكومة جلالتها لم تُستشر وهي لا توافق على مناقشات مفتوحة من نقطة البداية هذه».

لم يلتقط مارشال الإشارة الخفية. بل كان منغمساً جداً بسلوكياته العاطفية. وقبل أن يغادر سنغافورة كان قد صرح رسمياً أنه سيستقيل إذا أخفق في تحقيق الاستقلال. وبعد بضعة أيام وصلت إلى لندن، وتلقيت مذكرة منه بتاريخ 21 نيسان، اطلع عليها جميع الأعضاء، والحكومة البريطانية. طالب مارشال باستقلال فوري (ميركادا). وقال إن الاستقلال من شأنه أن يعزز مواجهة الشعب للشيوعية.

لم يلقِ لينوكس بويد بالاً إلى هذا الكلام وقال في 25 نيسان (ابريل): إنه في حين تستعد حكومة جلالتها لتقديم تنازلات أساسية لتحقيق مطامح سنغافورة، فإنها تنوي الاحتفاظ بـ «الكلمة النهائية» فيما يتعلق بالأمن الداخلي من خلال مجلس دفاعي يرأسه مستشار بريطاني رفيع المستوى.

لم يفهم مارشال مغزى الإشارات، واستمر في هرطقاته، وقرر أن يُبحر بعيداً. فقد وزع مذكرة جديدة في الأول من شهر أيار (مايو) مع مسودة لقانون استقلال سنغافورة. إذ لما كانت مقترحاته الأولى لم تحظ بالقبول، فقد أصر على طلب

الاستقلال التام، مقترحاً هذه المرة «مجلساً للدفاع والأمن» يكون له «صفة استشارية فقط»، ولا يستمر إلا «لفترة انتقالية». وخلال هذه الفترة الانتقالية يمكن لبريطانيا أن تتدخل وتعلق الدستور، ولكن سنغافورة سيكون لها «الاستقلال التام» في «الأوقات العادية». وكان اقتراح مارشال الجديد يسمح للإنكليز بالتدخل في «الأوقات غير العادية» فقط، أي بعبارة أخرى تتدخل فقط عند حدوث فترة فوضى أو بعد أن يستولي الشيوعيون على السلطة بطريقة دستورية ويهددون القواعد البريطانية.

كان جواب مارشال على لينوكس بويد مشابهاً لجوابه عندما صدّه الحاكم روبرت بلاك بشأن مسألة الوزراء الأربعة الصغار. لقد سخن الموقف، ولم يكن يدري أنه كان يعمل ضد المبدأ نفسه. وفي الجلسة التالية، أي في الرابع من أيار (مايو) علّق لينوكس بويد بجفاء حول نقطة «الأوقات العادية» التي أثارها مارشال بقوله «من الصعب اعتبار الأوقات الراهنة أوقاتاً عادية» واستمرت المناقشة بين أخذ ورد، إذ كان يزداد خلالها توتر مارشال فيما ظل لينوكس بويد محافظاً على هدوئه البارد.

وما يزال حدث ما راسخاً في ذاكرتي. ففي أثناء: تدفق مارشال في حديثه الممل اقترب سكرتير خاص من كرسي لينوكس بويد ووضع أمامه برقية. قرأ لينوكس البرقية وراح يكتب شيئاً ما فوقها. اغتاظ مارشال. وقطع كلامه، وقال بصوت أجش يدل على الغضب: «نحن نعلم، يا وزير الخارجية، أن لديك أشغالاً كثيرة في أماكن شتى من العالم، ولكننا سافرنا 8 آلاف ميل للمجيء إلى لندن كي نعرض قضيتنا ونحن نطالب بأن تولينا انتباهك».

استمر لينوكس يكتابة عبارات فوق ورقة البرقية وقال دون أن يرفع عينيه عنها: «دعني أؤكد لك يا رئيس الوزراء أن من بين جميع ممتلكاتنا في أرجاء العالم تعتبر سنغافورة الأثمن قيمة. إنها جوهرة ثمينة في التاج البريطاني. كلي

آذان صاغية. كنت تقول: يا رئيس الوزراء...» وأعاد حرفياً الجمل الثلاث الأخيرة التي نطق بها مارشال. كان مشهداً مؤثراً يدل على حنكة بريطانية تقليدية. أصيب مارشال بالذهول ولم يتابع كلامه، فقد كان أمام موقف لم يعتد عليه.

ولكن كانت كل الجهود هباء، وكان من الواضح أنها لا تقودنا إلى شيء، على الرغم من الاجتماعات المستقطعة والمناقشات الهادئة. كان مارشال يسعى وراء سراب «شيء أكثر من حكم ذاتي داخلي وأقل من استقلال كامل» كما قال لي عندما سألته: ماذا يريد تماماً؟. استمرت الجلسات ما ينوف عن عشر جلسات، إلى أن وصلنا في الجلسة الحادية عشرة، في 12 أيار (مايو) إلى مسألة رئيس «مجلس الدفاع والأمن». اقترح مارشال في البداية أن يكون الرئيس شخصاً تعينه الأمم المتحدة، وهو اقتراح كان من المؤكد أن ترفضه بريطانيا. وبعد ثلاثة أيام، وبناء على نصيحة من لجنته التنفيذية في سنغافورة. اقترح أن يكون الرئيس مالاوياً تعينه الحكومة الاتحادية. اعترض لينوكس بويد فبوجود ثلاثة بريطانيين، وثلاثة من سنغافورة وواحد مالاوي، فإن التصويت سيتوقف على الأخير، وسيكون البريطانيون أقلية. وبعد ظهر ذلك اليوم اقترح أن تكون «مسؤولية الدفاع لرجل بريطاني، وبما أن الأمر كذلك فإن بريطانيا سيكون لها الكلمة النهائية في رئاسة مجلس الدفاع والأمن».

وصلت المباحثات إلى طريق مسدود. وقرر لينوكس بويد أنه لا فائدة من استمرار المؤتمر أكثر من ذلك، وأوضح أن هذا يعني نهاية المحادثات. صعق مارشال، وشحب وجهه من شدة التأثر.

كان جميع أعضاء المؤتمر وأنا من بينهم، باستثناء مارشال وليم تشين سيونغ، موافقاً على ما عرضه البريطانيون. وضع حكم ذاتي مع حكومة سنغافورية مسؤولة عن الأمن الداخلي، مع احتفاظ بريطانيا بحق الاعتراض من خلال «مجلس الدفاع والأمن». حيث يتمتع البريطانيون بأكثرية الأصوات.

نصحت مارشال بألا يرفض هذا، بل بأن «يعود إلى الجمعية وأن يناقش المسألة ثم نتخذ الخطوة التالية». ولكنه رفض هذا الاقتراح قطعياً ـ لم يكن رجل حسابات الباردة الهادئة عندما يُحشر في زاوية كما هو حاله الآن.

أجرينا في تلك الأمسية معاً مقابلة مع محطة «التلفزيون المستقل». كلانا أنحى باللائمة على لينوكس بويد، ولكن مارشال استخدم لغة أكثر استعراضية، محتجاً بأن وزير الخارجية عرض «كعكة عيد الميلاد بصلصة الزرنيخ» وبات عليه الآن أن يحافظ على وعده بالاستقالة.

وفي قرابة الساعة 5.54 بعد الظهر، اتصل أمين سر الوفد بالهاتف ليخبرنا أن مارشال يدعونا إلى اجتماع طارئ لمناقشة إعادة فتح المباحثات، أيقظت ليم تشين سيونغ وأخبرته بذلك. لم يصدق ذلك. وقال بالإنكليزية بلكنته المحلية: «لي، اغرب عن وجهي، ولا تعبث معي».

أجبته: «ليم، أنا لا أعبث. هناك اجتماع في الساعة السادسة».

ما بين الشك واليقين لم يتحول موقف مارشال نحوي فقط، بل تحول موقفه تجاه الاشتراكيين الليبراليين، ومن أعضاء حزب «جبهة العمل» التابعة له. كانت رغبته في إعادة بدء المباحثات لإنقاذ نفسه قوية جداً بالنسبة له ولأعضاء حزبه. قال أحد أعضاء الحزب الاشتراكي الليبرالي بلهجته المحلية (الهوكين): «لا تستطيع أن تأكل ما تقيأته». قبل نصف ساعة من الاجتماع عرف مارشال أنه إذا حاول استئناف المفاوضات، فعليه أن يفعل ذلك على حسابه الشخصي. كان معزولاً.

في تلك الليلة ذهب إلى عرض مسرحية «مدام بيترفلاي» (Madam Butterfly) مع السيد لينوكس ـ بويد والسيدة باتريشيا لويد، ثم غادرا المسرح بعد ذلك لتناول العشاء في مطعم إسباني على ألحان الغيتار وإيقاعات راقصي الفلامينكو*. في

(*) رقصة إسبانية تقليدية ـ المترجم.

غضون ذلك قررت أن أوقفه عن تقديم أي تراجع. وفي مؤتمر صحفي عُقد في «قاعة الملايو» أعلن بوضوح أن «حزب العمل الشعبي» (PAP) لا شأن له بإعادة افتتاح المؤتمر. قلت: «لقد كانت محاولة أخيرة يائسة للتعلق بالسلطة، علامة حماقة سياسية لا تصدق»، وأكملت ذلك بقولي: «لم يحدث في تاريخ النهوض الاستعماري مثل هذا الخداع خلال فترة قصيرة من قبل قيادة شاذة غريبة الأطوار».

عرفت أنني بدعوتي إلى هذا المؤتمر الصحفي في تلك الليلة بالذات، رغم الوقت المتأخر، فإنه سينشر وسيعزز موقف جميع أعضاء الوفد. وهذا ما حدث بالفعل.

غادرت لندن مع ليم تشين سيونغ في 21 أيار (مايو). وقد تبين أن المؤتمر كان فاشلاً. ولكنه لم يكن بلا معنى، لأنه أطلع سنغافورة على الحماسية الفارغة لمارشال. كان على مارشال أن يستقيل، ورجحت أن يكون ليم يوهوك رئيس الوزراء القادم المحتمل لحكومة «جبهة العمل». سندخل في مرحلة جديدة. لم أكن متأكداً مما كان يفكر فيه ليم تشين سيونغ. ربما كان يحسب نتائج اندفاع مارشال الذي عمل على تشجيعه. كنا نميل إلى أن يكون لدينا حكومة أقل محاباة لـ CUF، وأن يكون ليم يوهوك في موقع مختلف. في المراحل الأخيرة من المؤتمر وجدت مارشال واقعاً تحت تأثير ليم تشين سيونغ كلياً. ولقد كانت نصيحة ليم الخرقاء هي التي أدت إلى رفض عرض لينوكس ـ بويد الأخير.

14. مارشال يخرج وليم هوك يدخل

عندما عاد مارشال إلى سنغافورة في 25 أيار عام 1956 كان ما يزال غاضباً مني. وقد طردني من الغرفة عندما ذهبت إلى المطار لأحييه ولحضور مؤتمر صحفي. وهو ينظر إلي بطرف عينيه، مبيناً أن المؤتمر للأصدقاء فقط. وبعدها غادرت المكان.

وفي كلمته الأخيرة، كرئيس للوزراء في 6 ـ7 حزيران كان ما يزال عليه أن يظهر بمظهر المنتصر الذي حقق مجداً، وطلب من «الجمعية» أن تصادق على موقف وفده في مؤتمر لندن. ولكن الاشتراكيين الليبراليين وبَّخوه بشدة على إخفاقاته، وعلى حماقاته لرفضه ثلاثة أرباع الرغيف، والعودة خالي الوفاض. قررت ألا أنتقد مارشال، بل أن أشكل جبهة متحدة ضد البريطانيين «الأشرار». كان يسود الاجتماع شعور بأن اللعبة انتهت، ولم أرَ من جانبي أي مكسب يذكر في الحط من شأن مارشال. وفي نهاية نقاش دام يومين استقال مارشال وأدى ليم يوهوك اليمين كرئيس للوزراء.

كنت مقتنعاً أن ليم يوهوك سيحكم بطريقة مختلفة. لم يكن يتمتع بشخصية مارشال أو حبه للظهور. ولا يستطيع أن ينتقل من أزمة إلى أخرى. لقد برز في عمله لأنه كان حساساً، عقلانياً ويُعتمد عليه ومفيداً لمن يخدمه. وكان لدي شعور أكيد أنه سيقبل بتحليل العاملين معه، ولاسيما خبراء «الفرع الخاص»، وأنه سيعمل بنصيحتهم في كيفية التعامل مع تخريب «الجبهة الشيوعية المتحدة» (CUF) الذي كان له مسالك كثيرة، ومؤيدون هنا وهناك. والمشكلة هي كيفية محاربته لها دون أن يتعرض لفقدان شعبيته. فهو إن هاجم الثقافة واللغة الصينيتين فسيخسر أصوات الناطقين باللغة الصينية. وإذا سجن زعماءهم لم يكن أمامهم إلا اللجوء إلى الإضراب والمظاهرات. فلسوف يخسر أصوات العمال بمن في ذلك العمال المالاويين والهنود الذين سيطالبون بإطلاق سراحهم.

ومع هذا فإن وضع CUF أصبح أكثر خطورة بوجود ليم يوهوك رئيساً للوزراء. لذا كنت مندهشاً أن ليم تشين سيونغ وجماعته قرروا أن يلعبوا دوراً أكثر أهمية وبروزاً. ففي انتخابات اللجنة التنفيذية الجديدة لحزب العمال الشعبي (PAP) استطاعوا أن يحصلوا على خمسِ مقاعدَ من أصل 12 مقعداً لجماعتهم. واستطاع ليم تشين سيونغ أن يحصد لنفسه 1537 صوتاً (أكبر عدد من الأصوات) مقابل 1488 صوتاً لي. وبذلك ترك المعتدلين يحتفظون بأغلبية ضئيلة، ولكنه جعل من الواضح أنه حين يحتاج الأمر إلى الدعم الجماهيري، فإن الموالين للشيوعيين سيمسكون بزمام الأمور. كانت سطوتهم كبيرة وكان بوسعهم أن يضعوا أيديهم على الحزب بسهولة عندما يريدون.

قررت أن آخذ إجازتي السنوية لمدة أسبوعين. واتجهت نحو مرتفعات الكاميرون مع تشو ولونغ، وتوقفنا في الطريق عند «فندق المحطة» في كولا لامبور. وقد اخترناه لأن لونغ كان مفتوناً بالقطارات وقد أخذناه إلى رصيف المحطة ليشاهد القطارات وهي تنطلق وتعود. ولكن ثمة سبب أكثر أهمية للبقاء في كوالا لامبور. فقد جاء أونغ بانغ بون، استجابة لرسالة كنت أرسلتها إليه، ليراني في الفندق.

لم تكن لغتي الصينية جيدة. أما بانغ بون فكان يتحدث لغة الماندرين، والهوكين، واللغة الكانمتونية، ومثقفاً ثقافة صينية وإنكليزية. كان قد تخرج لتوه من جامعة المالاوية، ويعمل في كوالا لامبور، لصالح «جمعية بورينو للبناء» المالاوية. كان راتبه 700 دولار في الشهر. ساعدني في تانغونغ باجار أثناء الحملة الانتخابية عام 1955، وقد طلبت منه أن يكون أمين السر التنظيمي لحزب العمل الشعبي (PAP)، ولكن لم يكن بوسعي أن أعطيه أكثر من 450 دولاراً في الشهر. أجابني أنه سيأتي إلى سنغافورة. «إذا كان الحزب يأمرني بذلك». قلت له إنني لا أستطيع أن آمره بشيء يسبب له خسارة 250 دولاراً من راتبه، وترك مدينته التي يسكن بها، فضلاً عن أن من كان يعمل لديهم عرضوا عليه السفر إلى إنكلترة

للتدريب. فطلب مني بعض الوقت للتفكير. وبعد فترة أسبوعين وافق وقبل أن يبدأ العمل في منتصف شهر آب. شعرت بالارتياح والامتنان له. فقد كان من العسير أن أجد شخصاً يعتمد عليه مثله. كان يتمتع بحساسية سياسية وتفهم لطلاب المدارس المتوسطة الصينيين، والعقائد غير الشيوعية.والأهم من ذلك كله أنني شعرت بالثقة تجاهه.

لم يكن عمله سهلاً. فقد كان من الصعوبة بمكان إدارة حزب متعدد اللغات والأعراق في سنغافورة.وكان نشطاء حزبنا ممن يتكلمون الصينية،وزعماؤهم من ذوي الثقافة الصينية. وهذا ما جعل الصينيين من ذوي الثقافة الإنكليزية والمالاويين والهنود، يأتون في المرتبة الثانية رغم أكثريتهم لأن ذوي الثقافة الصينية هم الذين كانوا يديرون كل شيئ. وكانت قيادة الحزب المركزية قد عقدت اجتماعات مخصصة لهم بالتحديد، لأن ذلك كان يتطلب إمكانات كبيرة مكلفة بالنسبة إلى حزب فقير.

بدون رجل مثل بانغ بون ما كان بوسعي أن أشرف على نشاطات الحزب، وكانت فروع الحزب تعكس مزاج «الجناح الوسط». حيث يضغط ليم تشين سيونغ وديفان نير لاتخاذ موقف ضد السياسات المعادية للشيوعية بشكل حازم من جانب حكومة تنكو في كوالا لامبور، والتي لم تدع مجالاً للشيوعيين للعمل بشكل دستوري. ولهذا فقد أصدر الحزب بياناً ندد فيه بحكومة التحالف في «الاتحاد». كان ذلك قراراً مهماً جداً. فلأول مرة كنا نمسّ قضايا حساسة في المالايو.

قلنا إن سياسة تنكو من شأنها أن تضع «طائفة تجاه طائفة وطبقة تجاه طبقة»، وإن بناء قوة من نصف مليون رجل لتشديد القبضة على الشيوعيين ومحاربتهم، ستبين بوضوح أن «الجيش وقوات الشرطة سيكون معظم أفراده إذا لم يكن جميعهم من المالاويين. وإن هذه القوات سوف تستخدم ضد الأحياء الصينية والعمال». كانت مخاطر الانقسام العرقي ما بين المالاويين والصينيين واضحة. والموقف المعادي للشيوعية من شأنه أن يحشد العمال من جميع الأعراق

ضد «أصحاب العمل الهنود والصينيين والأوروبيين الذين يساندهم الإقطاعيون المالاويون في الحكومة الاتحادية». لقد كانت هيمنة استعمارية خفيفة، إذ بعد أن استلم «تونكو» السلطة في شؤون الدفاع، والأمن الداخلي والمالية، أخفى البريطانيون أنفسهم بدهاء وراء وزراء التحالف» من ممارستهم للقوة الفعلية الممثلة بقواتهم المسلحة وإدارة الشرطة.

وفي اليوم التالي تراجع تونكو. وأوضح أنه لن ينسجم مع الشيوعيين أو حزب العمل الشعبي (PAP) وأن سياسته لم تكن تعتمد النظر إلى «شعبية زائفة» من خلال إثارة المشاعر المعادية لبريطانيا. وقال «أنا مصمم على أن أرى حكومتي بُحرية، بعيداً عن تدخل العناصر المخربة. ولهذا فأنا مصمم على حماية القانون والنظام في بلادي». ولكن الجواب الوافي جاء من تان سيوسين، الذي أصبح فيما بعد وزيراً للمالية: لا بد أنهم عرفوا أن التطهير قادم. ومع هذا اتخذوا موقفاً واضحاً من حزبنا وكانوا يضغطون على غير الشيوعيين لتبني موقف عدائي يزيد فرص اتخاذ الإجراءات الصارمة. استنتجت أن زعماء الحزب الشيوعي تحت زعامة ليم تشين سيونغ وفونغ سوي سوان لم يكونوا متأكدين أي سبيل سيسلك ليم يوهوك، وقرروا استخدامهم لاختبار الموقف. كانت كوادرهم الرئيسة مخفية، كما أن أرض المعركة الرئيسية بالنسبة لهم لم تكن سنغافورة بل المالايو، حيث كان التونكو وقاعدته الأساسية من المؤيدين هم عددهم الأكبر. ما كانوا يريدونه في سنغافورة هو الملاذ الآمن حيث يستطيعون بناء قوتهم للقتال عبر «كوزواي». كان اهتمامي الفوري أن أكتشف ماذا يخطط ليم يوهوك وصبيانه المستترين في «الفرع الخاص» ومكتب أمانة السر الرئيس ـ كما أوضح في 6 أيلول في الجمعية ـ «من أجل المصلحة الفضلى لسنغافورة».

لم يكن لدي الكثير من الوقت قبل أن تتحرك الحكومة. ففي 19 أيلول قامت بحل «اتحاد نساء سنغافورة» الموالي للشيوعيين، و«الجمعية الموسيقية الصينية»، واعتقلت 6 من زعماء «اتحاد العمال» ـ CUF، بمن في ذلك رئيس «اتحاد عمال

المخازن والمصانع في سنغافورة»، وثلاثة من الصينيين البارزين في ميدان التربية والتعليم. وأعلن ليم يوهوك في جريدة «ستريتس تايمز»: «قررنا أن نجابه بحزم الحظر المتزايد من جانب المنظمات الجبهوية الشيوعية. قررنا أن نضبط «التغلغل المستتر» إلى اتحادات محترمة من جانب الشيوعيين والمتعاطفين معهم». وصرحت في بيان لي: «العمل المفاجئ والتعسفي ملفت جداً للاهتمام. نحن نحقق في الموضوع». لم يكن ليم تشين سيونغ وفونغ راضيين عن بياني لافتقاره إلى الغضب والتعاطف. كانا يريدان إدانة ومعارضة بكل السبل الممكنة. لكنني لم أكن في عجلة من أمري.

في 24 أيلول (سبتمبر) ألغت الحكومة تسجيل «اتحاد طلاب المدارس المتوسطة الصينيين» في سنغافورة وخرج خمسة آلاف طالب من مدارسهم احتجاجاً، وراحت سيارة الشرطة تجوب الشوارع داعية أهالي الأولاد إلى إعادتهم. وذكرت الصحف أن الأساتذة كانوا عاجزين عن فعل أي شيء. أحد المسؤولين وهو صيني شوفيني وصف الطلاب بأنه «لا يمكن السيطرة عليهم». ولكن عندما أخبرهم وزير التربية تشيو سوي كي أن عليهم مواجهة العواقب إذا لم يلتحقوا بصفوفهم بطريقة منتظمة، قرر بعضهم العودة إلى البيت. وكان من الحكمة أن الحكومة لم تدع مجالاً للشك بأنها ستسيطر على الموقف، أما وليم تشين سيونغ وفونغ ما كان بوسعهما إلا أن يستوعبا هذه الإشارة على أنها نهاية فصل من فصول هجومهم الجبهي الموحد.

وفي اليوم التالي تم حظر أربع منظمات ذات صلة بالطلاب الصينيين. وبعد أسبوع اعتقلت الشرطة رئيس اتحاد الطلاب المحظور روبرت سون لوه بون الذي كان رئيساً لاتحاد الطلاب المحظور.

في اجتماع الجمعية التشريعية الذي انعقد في الثاني من شهر تشرين الأول (أكتوبر) انعقدت الحكومة على ما قامت به من اعتقالات وعمليات الطرد، كانت عملية شكلية، كنت أعرف أن ليم يوهوك يريد أن يقوم بعملية تطهير. ولم يكن

سيارة محترقة نتيجة أعمال شغب أثناء صدامات حرض عليها الشيوعيون في تشرين الأول 1956.

باستطاعته أن يسلك السبيل الذي سلكه مارشال بدون أن يواجه المصاعب. واتخذ تشيو طابع الهجوم، وأنحى باللائمة على أولياء الأمور وغيرهم ممن حرضوا الطلاب على الإضراب.

استمرت الحكومة بالضغط دون أن تتعظ بما آلت إليه الأمور. ففي 10 تشرين الأول (أكتوبر) اعتقلت الشرطة أربعة من قادة الطلاب من «اتحاد طلاب المدارس المتوسطة الصينيين» (scmssu)، وبعد ثلاثة أيام «المدرسة الصينية العليا» ومدرسة «تشونغ تشينغ» الثانوية، وفي 16 تشرين الأول فتحت الحكومة طوارئ لأربع مئة طالب كي يكملوا دراستهم، وانضم إليهم آخرون في الأيام التي تلت. وبعد أسبوع لوح وفد يمثل ما يدعى «الطلاب السنغافوريين المحبين للحرية من المدارس الصينية المتوسطة» بالعلم الأحمر أمام ليم يوهوك، وفي اليوم التالي مباشرة أعلن رئيس الوزراء بنفسه إنذاراً عبر الإذاعة للطلاب الذين ما يزالون معتصمين في مدرستين بإخلائهما في الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي.

وفي مساء 24 تشرين الأول (أكتوبر) عقد حزبنا مهرجاناً في ساحة مفتوحة تدعى «العالم الجميل» في شارع بوكت تيماه للاحتجاج بطريقة سليمة على عمليات الاعتقال، وكنت مع ليم تشين سيونغ، ونير تشين تشيه في المنطقة ذاتها. وعندما انفض الاجتماع توجه ليم تشين سيونغ ومؤيدوه في قافلة من الشاحنات نحو «المدرسة الصينية الثانوية». وعندما اتجهت بسيارتي إلى هناك رأيت بوابات المدرسة محاطة برجال الشرطة وبمئات الآباء والأقرباء يحيطون بهم. كان الشيوعيون يريدون أن يرى هذا المشهد أكبر عدد من الناس، في تلك الأمسية. وانتابني إحساس باحتمال وقوع أعمال قمع وعنف.

ما حدث أن أعمال العنف والشغب بدأت خارج مدرسة «تشونغ تشينغ» الثانوية في شارع غودمان، حيث اصطدمت مجموعة من 400 ـ 500 طالب مع الشرطة، وهاجمت مركز البريد في «تانجونغ كاتونغ» ومخفراً للشرطة في «جيلانغ». ثم قام المتظاهرون، وعددهم قرابة أربعة آلاف من المدرسة الصينية

الثانوية بقلب ثلاث من سيارات الشرطة. وعندما حاولت الشرطة تفريقهم بالغاز المسيل للدموع تفرقوا، ولكن أعمال الشغب والعنف انتقلت إلى وسط المدينة في شارع روكور وأماكن أخرى من مدينة سنغافورة، وعند منتصف الليل فرضت الحكومة منع التجول. واستمرت أعمال الشغب في اليوم التالي. وأعلن عمال مصنع «ميدل رود للباصات» الإضراب، ولكن الحكومة استطاعت بواسطة قوات الشرطة والجيش، وبالحوّامات وبالآليات التي تطلب إلى الجمهور وقف أعمال التظاهر والشغب، أن تسيطر على الموقف.

كانت الشرطة والجيش مستعدين تماماً وكان بينهما تنسيق كامل. وكانت الحوامات والسيارات المدرعة تجول في المدينة منذ الفجر. ووُضعت قوات مكافحة الشغب في حالة تأهب ونُصبت المتاريس. لم يكن ثمة تهديد حقيقي للأمن. ولكن أعمال الشغب والعنف أعطت مبرراً للحكومة لاعتقال 219 شخصاً، بمن فيهم زعيم مجموعة «ميدل رود» ـ ليم تشين سيونغ وفونغ، وكذلك بعض أصحاب الثقافة الانكليزية من أمثال نير، دود هايك، وبوتو تشيري.

خلفت أعمال الشغب 13 قتيلاً، 123 جريحاً، واحتراق وتخريب 70 سيارة، وتدمير مدرستين ومخفرين للشرطة، واعتقلت الشرطة ألف شخص، من بينهم 256 شخصاً من رجال العصابات. وفي الأمسية التالية أعلن ليم يوهوك عبر الإذاعة: «حررنا النقابات، والفلاحين، والأساتذة، والاتحادات الصينية من الاستغلال السياسي». وأطلقت صحيفة «ستريتس تايمز» على هذه العملية في عنوان صفحتها الأولى اسم «عملية التحرير».

وضع رئيس الوزراء الجديد نفسه في موضع الخاسر. كنت أعتقد منذ البداية أن الحكومة قد ارتكبت خطأ استراتيجياً بالتركيز على المدارس المتوسطة، ولاسيما «المدرسة الثانوية الصينية» ومدرسة «تشونغ تشينغ» الثانوية، اللتين تعتبران من أرقى المدارس التي تدرس بالصينية، والتي يفخر الآباء بإرسال أولادهم إليها. لماذا تصرف «الفرع الخاص» بهذه الطريقة؟ فبتركيزهم على

الطلاب، جعلوا الناس يعتقدون أن ليم يوهوك كان يحارب نظام التعليم الصيني بكامله. وتلك الفكرة كانت وبالاً عليه. لم يكن دستور رينديل يعطيه صلاحية السيطرة على الأمن الداخلي، فهذا كان من صلاحيات السكرتير الأول والحاكم. ولكن السكرتير الأول رفض لأسباب سياسية أن يحارب الشيوعيين. وبدلاً من ذلك ليم يوهوك لنفسه مع بعض مسؤولي الأمن لديه أن يتحمل مسؤولية التطهير. وبالنتيجة كان من السهل على الشيوعيين أن يصوروه كأداة «للإمبرياليين الاستعماريين». وحاول البريطانيون والأمريكيون مساعدته في موقفه الضعيف بمدح شجاعته وصلابته. وكان أول من فعل ذلك لينوكس بويد الذي قال: «لقد جُرت الأفعى الشيوعية ولكنها لم تقتل... يوجد في سنغافورة وزراء قادرون وشجعان يستطيعون مواجهة مشاكلهم في هذه البقعة المهمة من بقاع العالم الحر».

كما امتدحه أيضاً وزير الخارجية الأميركية ومسؤولون أوستراليون. ولكن ليم يوهوك لم يدرك كم تضررت شعبيته لدى القاعدة الجماهيرية الناطقة بالصينية. كما ارتكب خطأ آخر عندما حاول أن يكسب تأييد بعض الاتحادات والمنظمات، ولكن هذه كانت من الضعف بحيث لا تستطيع أن تقدم له شيئاً. وعندما حاول بعض المسؤولين البريطانيين من أمثال رئيس اتحاد المتقاعدين، ورئيس غرفة التجارة في سنغافورة البريطاني، وأسقف سنغافورة البريطاني تأييده كان ذلك في غير صالحه لأنه رسخ الاعتقاد بأنه كان يعمل لصالح الغرب.

استخلصت أنه لو واجهت حكومة حزبنا (PAP) مثل هذه المشكلة فإنني لن أرتكب الأخطاء نفسها مطلقاً. كنت سألزم الآباء أنفسهم بسحب أولادهم من المدارس وأخذهم إلى البيوت. وكان بوسع «الفرع الخاص» أن يعتقل المسؤولين عن الإضرابات بعد أن يتفرق الطلاب. كان من الأفضل بالنسبة لليم يوهوك أن يعتقل الناشطين في النقابات والجمعيات الثقافية.

علمني مارشال ألا أكون رقيقاً وضعيفاً عند التعامل مع الشيوعيين. أما ليم يوهوك فقد علمني ألا أكون فظاً وغير متحفظ. ولكن لم يكن كافياً استخدام القوى الإدارية والشرعية لقمعهم. لم يدرك ليم أن لعبة الشيوعيين بأن يجعلوه يخسر تأييد الجماهير الناطقة بالصينية لتدمير مصداقيته كزعيم كان يعمل لصالحهم. لقد كانوا قادرين بهذا على جعله يظهر بمظهر الانتهازي، وبمظهر الدمية في يد «الإمبرياليين الاستعماريين». تعلمت من ليم يوهوك ألا أجعل الشيوعيين يدفعون ثمناً باهظاً من أجل أن أكبح جماحهم.

وبعد أن انجلى الغبار عن تطهير الحكومة لزعماء الفتنة الشيوعيين تصدت لزعماء الصف الثاني ممن لم يلتقطهم «الفرع الخاص» من سراديبهم. جازفوا بالظهور كي يروا ما إذا كانوا سيعتقلون. ولكنهم لم يعتقلوا. جاء كثيرون ليروني في مكتبي في شارع ملقا، وطلبت من دينيس أن يرافقهم إلى فروعهم المختلفة ليأخذ بياناً مفصلاً بالأضرار، ويستعيد أية ممتلكات ما تزال هناك ويحدد المتهمين. ذهب دينيس إلى «بوكتي تيماه» «وبوكتي بانجينغ» حيث حدد المباني المخربة. كانت رائحة الغاز المسيل للدموع ما تزال تفوح وسط فوضى الأثاث المخرب والقرطاسية، والأحذية المبعثرة المفقودة في غمرة العراك أثناء حملة الاعتقالات.

اعترف أحد القادة بأنه شديد القلق ـ فقد اختفى مبلغ 120 ألف دولار من صناديق الاتحاد كانت محفوظة في صندوق في غرفة خلفية في مقر القيادة الكائن في شارع «ميدل رود». كان المبلغ قد سُحب من المصرف في آخر لحظة. كنت أعتقد أنه أخذ للحيلولة دون وقوعه في أيدي أمين سر الجمعيات. وما هي إلا بضعة أيام حتى يشرع «الفرع الخاص» في تفقد حسابات النقابات ويجد النقود الضائعة، وقررت بوصفي مستشاراً قانونياً للاتحاد بالإعلام عن فقدان المبلغ فوراً.

اقترف ليم تشين سيونغ جريمة بسحب معظم المبلغ تقريباً لأغراض لا تتوافق مع قواعد الاتحاد، وعدم قدرته على المحافظة عليها. ولكن عندما ذهبت لأراه في مخفر الشرطة الرئيسي حيث استدعى للتحقيق، ادعى أنه لا علم له. قال: إن النقود كانت في الغرفة الخلفية قبل ثلاث ساعات من الهجوم على المباني في الساعات الأولى من 27 تشرين الأول.

والشخص الآخر الوحيد الذي كان يعلم به هو أمين صندوق الاتحاد. قابلته في «سجن تشانغي» قبل أن ألتقي ليم. قال: إنه لا يوجد إلا مفتاحين للغرفة المقفلة، أحدهما معه والآخر مع ليم. وبحسب ظنه فإن المال كان موجوداً في الغرفة في الوقت الذي قامت به الشرطة بالمداهمة.

جرت جميع التحقيقات مع المدانين بموجب أحكام الطوارئ بحضور ضابط الفرع الخاص. لم أستطع أن أفهم لماذا لم يحرر «الفرع الخاص» سجلات التحقيق إلى المدعي العام بحيث يمكن أن يدان المقترفون بجريمة انتهاك الأمانة. لقد سحبوا 120 ألف دولار، وأنفقوا 20 ألفاً على مواد لا يستطيعون تقدير قيمتها بدقة، و«خسروا» الباقي. كان على الحكومة أن تُظهر ليم تشين سيونغ، ومسؤوله المالي ورئيسه على أنهم لصوص، وليس كشهداء ثوريين اتهموا بقضية سياسية.

بدلاً من ذلك، طلب منهم أمين سجل النقابات في 21 تشرين الثاني (نوفمبر) أن يبينوا السبب في عدم تسجيل SFSWU بسبب أنه كان «لا يستخدم لأغراض لا تتناسب مع أهدافه وقواعده» فحسب، بل أيضاً بسبب أنه «أرصدة الاتحاد لم تنفق على أغراض تجيزها القواعد». في بيانه أمام أمين السجل قال ليم: إنه وجد أن اعتمادات الاتحاد، البالغة آنذاك حوالي 150 ألف دولار ينبغي ألا تسلم إلى الحكومة بل أن يحتفظ بها كي تستخدم فيما بعد لمصلحة العمال. الإفادة التي رواها آنذاك كانت مختلفة تماماً عما ذكره لي أمام ضابط الفرع الخاص، ولكن الاستنتاج في صميمه كان واحداً: وضعنا النقود في صندوق حديدي في غرفة تقع خلف مباني الاتحاد في الشارع المتوسط. كان ذلك آخر ما علمته حول

النقود. لا بد أن أحداً قد سرق النقود من تلك الغرفة منذ اعتقالي في الساعة الثانية بعد الظهر. وهذا يعني عدم وجود جرم بسوء الائتمان. ولكن الحكومة اختارت أن تدينه بموجب أحكام الطوارئ.

كنت أقل اهتماماً بالخسائر الأخيرة «للجبهة الشيوعية المتحدة» (CUF) من اهتمامي بكيفية إعادة تجمعها وتنظيمها في المستقبل. كان الحزب الشيوعي المالاوي يحتاج إلى فريق ثان من الزعماء، ممن ينبغي أن يقرروا الآن نهجَ الطريق الذي رسمه الفريق الأول. فإذا استطاعوا إيجاد رجالٍ قادرين على أن يقوموا بذلك بين مجموعة النشاطات المكشوفة، فقد يضحون ببعض كوادرهم الخفية. انتظرت حتى أرى كيف سيلعبون اللعبة. لقد لعبوها بأمان. قرروا أن يُنزلوا الشقيق الأصغر لليم تشين سيونغ، ليم تشين جو، كبديل يقوم بحمل العلم الذي خلّفه وراءه في شارع ميدل. كان ليم تشين جو طالباً في المدرسة الثانوية الصينية. لم يكن لديه وجه أخيه الطفولي، بل كان أعرض منه وأقل شبهاً ولكنه ألمع وأشد. ولم يكن لديه لسان ليم تشين سيونغ. ولكنه كان الاختيار المنطقي. كان يجسد ليم تشين سيونغ الذي أراد الحزب الشيوعي أن يُذكر كزعيم كبير كان محتجزاً الآن مؤقتاً من قبل حكومة تُعد غير عادلة ومدعاة للسخرية.

فاوض الزعماء الجدد، متوقعين عدم التسجيل في SFSWU، في 14 شباط 1957، نقابة قائمة ولكنها غير فعالة، مستخدمين إياها كمطية. كان لدى اتحاد سنغافورة العام للعاملين 2000 منتسب إلى عضويته. وقد تدنا عدد الموالين للشيوعية فيه من 18 مقعداً إلى 21 مقعداً في اللجنة المركزية المشتركة، وقد نقل ليم تشين جو الحزب إلى مقر القيادة القديم في «الشارع المتوسط» وفي غضون شهور ارتفع عدد الأعضاء إلى 20 ألف عضو.

كذلك عادت الفروع إلى الحياة، ولكنها لم تكن في الحالة ذاتها من النشاط الجم. فبعض الكوادر الجديدة كانت من الهواة، وبعض الذين عملوا مع الزعماء المسجونين قد أصابهم الخوف، وكانوا عازفين عن توريط أنفسهم، غير عارفين

أنه سيكون هناك فريد من التطهير. وهكذا فإن النقابات لم تستعد الاندفاع والهمة اللتين حصلت عليهما منذ أواسط عام 1954 حتى نهاية 1956. ولكن لم يكن لدي شك في أن المدارس الصينية المتوسطة طالما كانت تخرّج طلاباً أذكياء وطموحين، كان يحرمهم النظام السياسي من الوظائف الجيدة في القطاعين العام والخاص فسيكون الإحباط لدى القادرين والموهوبين في أوساط ذوي الثقافة الصينية الذين لم يكن لديهم منفس لطاقاتهم ومثاليتهم، والذين كانوا في الوقت نفسه متأثرين بإنموذج الكوادر الشيوعية الشابة في الصين. ولكن بعد الأخبار عن إفراط الثورة الثقافية خلال السبعينيات بدأ الشيوعيون يضعفون.

في تلك الأثناء أُضيف العرض الفخور بالتضحية بالذات من جانب الكوادر القيادية إلى الأسطورة. وبعد العمل طيلة النهار في الأنشطة الخطابية، والتفاوض مع أصحاب الأعمال الخبثاء، وصل ليم تشين سيونغ وفونغ إلى مقاعد القمة في قيادات النقابات. كان لأسلوب حياتها ذي الطابع الإسبارطي تأثير كبير على أتباعهم، الذين حاولوا أن يحتذوا بهما متنافسين فيما بينهم بروح أفكار الذات نفسها. حتى الطلاب الشباب الأغنياء، أرادوا أن يتشبهوا بليم وفونغ. أحد أبناء مالك شركة للباصات أمضى معظم وقته يعمل سائقاً بدون أجر من أجلهما، مستخدماً سيارة العائلة. كانت تلك مساهمة منه من أجل القضية. كان فخوراً بالانتساب إلى الكوادر الثورية ذات الملابس البسيطة والذين لا يتركون إلا اليسير من رواتبهم لأنفسهم لأن كل ما يأخذونه من أرباب العمل هو من حق العمال. لم أكن أعرف كم كانوا يوفرون من أجل أن يطعموا الثوريين، وربما لم يكونوا يوفرون شيئاً لأنفسهم ـ من المؤكد أنهم لم يكونوا يعيشون بالمستوى الذي كانوا عليه.

كان ثمة عرض تنافسي لأفكار الذات عمَّ جيلاً بأكمله، فبقدر ما تكون ناكراً للذات بقدر ما تؤثر في الجماهير أكثر،ويكون من المرجح أن تتأهل إلى الانتقال من الجماعة المعادية لبريطانيا إلى الحزب الشيوعي المالاوي، الحزب القائم وسط الثورة. وبمثل هؤلاء المؤيدين يستطيع الشيوعيون أن يخوضوا الانتخابات،

إذ لا يوجد نقص في العمال أو الملتمسين للأصوات، وكان المتطوعون يحظون بملابس من قبل المؤيدين المتحمسين. وكنت أجد أصحاب المطابع يوزعون الكراسات مجاناً أو يحولون أثمانها إلى حسابات النقابات. كذلك كانت الفتيات يشاركن بحماسة ويتوددن إلى ليم وفونغ ناظرات إليهما كوالدين لهن. أما الفتيات الأقل جاذبية فكن يعملن مع القادة الفرعيين في مختلف النقابات.

وعلى النقيض من ذلك، أي عندما كان علينا أن نجد عمالاً واجهتنا مشكلة حقيقية. فقد شغّلنا متطوعين من النقابات ومن الأصدقاء، ولكنهم كانوا يريدون جميعاً العودة إلى البيت في وقت الغداء لغرض أو لآخر أو بسبب التزام خاص. لم يكن هناك التزام كامل، أو تفان في العمل كما لدى الجانب الآخر ـ كان أحد المتحمسين يقوم بعمل ثلاثة أو أربعة من المتطوعين لدينا. اعتدت أن أكون محبطاً بسبب تورطي الطويل بكل هذا. أخفقت في التأكد آنذاك أنهم لا يمكن أن يستمروا في ذلك طويلاً. فالحماسة الثورية سوف لن تحملهم بعيداً. ففي النهاية كان عليهم أن يعيشوا ويبنوا أسراً، والأسر تتطلب نقوداً ومنازل، وعناية صحية وإنجاباً ومطالب الحياة الطيبة الأخرى.

وكان من بين الأشياء الغريبة لديهم أنهم عندما تخلوا عن الشيوعية، كما فعل بعض زعماء طلاب المدارس المتوسطة الصينيين، غالباً ما أصبحوا جشعين للغاية كي يعوضوا الوقت الضائع. بدوا وكأنهم يشعرون أنهم حُرموا من أجمل سنوات حياتهم وعليهم أن يعوضوا ما خسروه. كانت هذه رؤية مسبقة لما شاهدته فيما بعد في الصين وفيتنام. فعندما لم تقدم الثورة الدنيا المثالية (اليوتوبيا) وتحول الاقتصاد إلى سوق حرة كانت الكوادر القادرة على إصدار تراخيص أو الوصول إلى البضائع والخدمات بأسعار رسمية، أول الفاسدين والمستغلين للجماهير.

15. ثلاثة أرباع استقلال

بعد أحد عشر شهراً من انهيار المباحثات الدستورية الأولى. عدنا إلى لندن من أجل جولة ثانية. هذا المؤتمر الثاني انعقد في جو مختلف تماماً. فالخلافات التي كانت قائمة داخل الحزب قد استبعدت تماماً، وكان هناك اتفاق مبدئي بشأن الحلول. ففي 7 شباط من عام 1957 دعا رئيس الوزراء ليم يوهوك إلى اجتماع جميع الأحزاب لوضع المخطط التمهيدي لدستور جديد، وبعد شهر قدمت مشروعات مختلفة «للجمعية». كان تحرك ليم واقعياً وبسيطاً وهو: «أن نضمن من حكومة جلالتها وضع دولة ذات حكم ذاتي تتمتع بجميع الحقوق والسلطات والامتيازات المتعلقة بالشؤون الداخلية، والتجارة، والعلاقات التجارية والثقافية على الصعيد الخارجي».

لم يكن هناك محاولة لإخفاء الحقيقة الكريهة وهي أن هذا ليس استقلالاً، وأن السيادة ظلت بيد البريطانيين. وكما بيّنت فيما بعد أن هذا يعني أنهم سيكونون قادرين على إلغاء الدستور عندما يريدون، وستكون هناك قوات بريطانية كافية في البلاد لجعل مثل هذا الإلغاء ممكناً. كان الجدل عملية سهلة لا سيما وأن ديفيد مارشال كان غائباً في بورنيو في مهمة قانونية. وأعلم تونكو السيد ليم يوهوك أنه يرغب في أن يكون له ممثل في «مجلس للأمن الداخلي» ثلاثي الأعضاء، وأن لينوكس بويد بات الآن راغباً بقبول ذلك، وفقاً للتعريف الدقيق لما يستطيع المجلس أن يقوم به وما لا يستطيع.

بيد أن ليم يوهوك لم يكن موفقاً بإلزام نفسه باقتراعات مبكرة في شهر آب (أغسطس) عام 1957. إذ لا يمكن إلقاء الفرد ثانية في انتخابات عامة إلا بعد تحضيرات جيدة، لا سيما أن المراهنات ستكون شديدة. وافقت اللجنة التي تمثل جميع الأحزاب على أن تكون «الجمعية»، التي ستشكل بموجب الدستور الجديد،

متعددة اللغات. كما ينبغي أن يكون هناك قانون جديد للجنسية يمنح حق الاقتراع لعدد لا يقل عن مئتي أو ثلاث مئة ألف شخص معظمهم من الصينيين الذين أقاموا في سنغافورة ثماني سنوات على الأقل من السنوات العشرة الأخيرة. وعندما تحدثت في «الجمعية» في 5 أيار (مايو)، أوضحت موقف حزب العمل الشعبي: (PAP) يجب إقرار هذا القانون وأن يُعطى للمواطنين الجدد حق الاقتراع والترشيح قبل أن تجري الانتخابات العامة، ومع هذا فإن العملية ستستغرق سنة على الأقل، أو ربما أكثر من ذلك بثلاثة أشهر.

بعد تجربة مارشال بالذهاب إلى المفاوضات بوفد من 13 عضواً، خفض ليم يوهوك وفده إلى خمسة أفراد ـ اثنان من «جبهة العمل» وواحد من UMNO، وواحد من «الاشتراكيين الليبراليين»، وأنا ممثلاً حزبي (PAP). هذا المؤتمر كان مؤتمر التفاصيل العملية. فقدم الدستور المقترح «للجمعية التشريعية» المؤلفة من 51 عضواً منتخباً من بينهم رئيس الوزراء والوزراء الآخرين. ويحق "للجمعية" التشريع في الشؤون كافة باستثناء الشؤون الخارجية، والدفاع، ولكن في حال اضطراب الدفاع والأمن الداخلي يستلم السلطة «مجلس الأمن الداخلي». وهذا المجلس يتألف من ثلاث أعضاء بريطانيين، أحدهم رئيس المجلس، وثلاث أعضاء من سنغافورة، أحدهم رئيس الوزراء، وعضو واحد من اتحاد المالايو. وسيكون لسنغافورة رئيس يدعى يانغ دي ـ بيرتوان نيغارا، بدلاً من الحاكم البريطاني.

ترك ليم يوهوك مسودة الدستور المقترح لولتر رايبورن QC، ولكن كان عليّ أن أطلع على الوثائق للتأكد من أنه في حال تشكيل حزبنا للحكومة سنكون قادرين على العمل به. وكانت هناك مسألة واحدة مثيرة للنزاع، ففي الجلسة الخامسة عشر المكتملة قال لينوكس ـ بويد: إن حكومة جلالتها لا تسمح لسنغافورة أن تصبح تحت سيطرة الشيوعيين، وإنه شعر بصورة مؤكدة أن الوفد السنغافوري لا يريد أن تكون هناك مثل هذه السيطرة في جميع الأحوال. ولهذا فقد اقترح شرطاً غير قابل للتفاوض بوضع حظر على جميع الأشخاص المعروفين بأنهم

تورطوا أو اتهموا بنشاطات تخريبية يحول دون ترشيحهم بالانتخابات الأولى التي ستجري بموجب الدستور الجديد. اعترضت على هذا قائلاً: «إن هذا الشرط معيق لسببين أولاً لأنه يخالف الممارسة الديمقراطية، وثانياً لأنه لا توجد ضمانة تحول دون أن تلجأ الحكومة التي تملك السلطة لا إلى منع الشيوعيين فقط، بل ومنع الخصوم الديمقراطيين الذين يعارضون سياستها من حق المشاركة في الانتخابات».

كنت أتحدث كي يُسجل ذلك في محضر. والحق أن ليم يو هوك كان قد أثار معي هذه المسألة بهدوء مرة أخرى في سنغافورة بعد أن اجتمع بلينوكس ـ بويد في لندن في شهر كانون الأول (ديسمبر)، وبعد أن دعاني هذا الأخير إلى تناول الشاي معه منفرداً في منزله في «حي إيتون» لمناقشة المسألة. وبعد بعض المجاملات الاجتماعية سألني: ماذا سيحدث عندما يشارك رفاقي الذين كانوا في السجن، مثل ليم تشين سيونغ، في الانتخابات القادمة؟. قلت: إنه سينجح وسيخسر خصومه في منطقة «بوكيت تيماه» الانتخابية. فعبّر عن دهشته.

قال: «في بلادنا عندما نعتقل شخصاً بموجب المادة 18 و(التي تعادل في زمن الحرب إجراءات الطوارئ عندنا) يخسر الثقة في أية انتخابات. لقد كان أزولد موسلي ـ زعيم الحزب الفاشي البريطاني الموالي للنازية ـ عضواً في البرلمان. وبعدما اعتقل وأُدين. لم يكسب في أية انتخابات بعد ذلك».

نظرت إليه بأسى وقلت: «في بلادكم، مثل هؤلاء الناس يُعتبرون خونة ومتعاونين مع العدو. أما في سنغافورة فعندما تعتقلك حكومة ذات حاكم بريطاني. ورئيس للوزراء بريطاني بتهمة ما، فإنك تُعتبر شهيداً، أو بطلاً شعبياً. وشعبيتك ستزداد».

سألني: «هل توافق إذا أدخلت هذه المادة، وهي استبعاد أمثال هؤلاء من الانتخابات الأولى لإعطاء فرصة لأول حكومة منتخبة في ظل حكم ذاتي داخلي كامل الصورة وأكثر نظافة تبدأ بها؟».

أجبته: سأشجب ذلك. وستتحمل أنت المسؤولية.

قال: إن كتفيّ مُثقلان بما فيه الكفاية.

لقد كانتا كذلك جسدياً ومجازياً. أخبرته أنني سأحتج، ولكنني أكدت له أن هذا لا يعني بالضرورة نهاية الحديث. وقلت في نفسي: إن تقدمَ سنغافورة الدستوري لا يمكن أن يُبقي في الأسر ليم تشين سيونغ، وفونغ سوي سوان وجماعة «الطريق الوسط».

أتيح لي أن أتبع لينوكس ـ بويد طوال مدة شهر في المؤتمر الأول الذي انعقد عام 1956. كان رجلاً يترك انطباعاً مؤثراً في النفس. كان من الناحية البدنية عملاقاً يزيد طوله على ستة أقدام. ضخم الجثة. وتتجلى حيويته الفائقة من خلال صوته وتعبيرات وجهه وحركات جسمه كان أنيقاً يضع دوماً زهرة في عروة سترته. كان يتحدث بلهجة طالب مدرسة ثانوية عامة، ولكن بطريقته الرفيعة جداً كان ودياً واجتماعياً وشغوفاً في جعل الآخرين يشعرون بالراحة. كنت أحترم ذكاءه وصراحته. في ذلك الوقت كانت وزارة المستعمرات واقعة تحت ضغط شديد، إذ كانت مستعمرة إثر مستعمرة تطالب بالاستقلال. ومع هذا، خصص وقتاً لاستقبال الوفد السنغافوري يوم الأحد في تشيكرز، البيت الريفي لرئيس الوزراء، الذي وضعه تحت تصرفه. وكان قد اشترى كاميرة من نوع «بولارويد»، التي كانت حديثة جداً آنذاك، فقد كان يستمتع بالتقاط الصور وإعطائنا نسخاً عنها على الفور. وقد أعطاني صورة تجمعنا كلنا عند بوابة «تشيكرز» مع جون بروفومو، الذي كان وزيراً ثانوياً مثله.

لذا عندما قابلته في منزله في ذلك المساء كنت واثقاً أنني سأقول كل ما يجول في خاطري. وإذا وجدته حاداً في تعامله فإن جوابي سيكون متحفظاً، تحدثت إليه بصراحة وفهم مني أنني لن أنسف المؤتمر بسبب أي إجراء ضد موقف المعتقلين كمرشحين في الانتخابات. ما عرفناه بعد 38 سنة من الوثائق أن ليم يوهوك قد أخبر حاكم سنغافورة أنه «لا يستطيع لا هو ولا لي كوان يو أن

بعد غداء يوم أحد في تشيكرز مع آلان لينوكس بويد (يواجه الكاميرا) وزير الدولة لشؤون المستعمرات، عام 1957، إلى يمينه جون برفومو وزير الحرب، في مواجهة ليم يوهوك.

يأخذا ذلك على عاتقهما، أثناء مباحثات شهر آذار، ولكنه هو ولي كوان يو لن يعترضا إذا تخلى وزير الدولة عن هذا الشرط»، ونقل هذا إلى لندن. ولذا عندما أعلن لينوكس بويد هذا الشرط في جلسة 10 نيسان، لم يكن ذلك مفاجئاً لي أو لليم أو لأعضاء وفد الحزب جميعاً الذين كانوا قد اجتمع بهم على انفراد.

بعد خمسة أسابيع من المباحثات انتهى المؤتمر بصورة ناجحة ولكن ببيان معتدل هادئ. وعدنا إلى الوطن مجتمعين هذه المرة، وليس فرادى كما في المرة السابقة، وعندما طرنا إلى سنغافورة في الساعة الثالثة عصراً في يوم 14 نيسان، لم نكن مبتهجين ولكن جادين في التحفظ على النتائج المتواضعة التي حصلنا عليها. كان الجمهور الضئيل الذي استقبلنا في المطار هادئاً، وعلقت الصحافة على غياب صيحات «ميرديكا» (انتصار) علماً بأنه أمر طبيعي في مثل هذه المناسبات. خرج ليم يوهوك من الطائرة أولاً وتبعه باقي أعضاء الوفد، وكان آخرهم السيد لي كوان يو الذي خرج عابساً واتجه على الفور إلى مؤتمر خاص مع دكتور توه تشين تشيه. وفقاً لما ذكرته صحيفة «ستريتس تايمز».

عقد ليم مؤتمراً صحفياً، ثم غادر الوفد إلى «باونغ» في موكب ومعهم رئيس الوزراء. اصطفت الجماهير على طرفي الطريق، ولكنها كانت صامتة صمتاً غريباً. وانفجر ألفا نقابي، كانوا ينتظرون عند جسر «ميرديكا» فوق نهر كالانغ، بالصياح، والمفرقعات، أما «مجلس اتحاد نقابات سنغافورة» فقد استقبلوا رئيس الوزراء بصورة مؤطرة وبعلم صيني علامة للتهنئة. ولكن عندما وصلت السيارات إلى «ستي هول»، حيث كانت الحشود أكثر كثافة على طول الطريق، لم تكن هناك علامات ترحيب. وعندما صعدنا إلى المنصة المزينة، صاح بضع مئات من الطلبة «أومباه ميرديكا» لعدة دقائق. ولم تكن صيحات تأييد للوفد، بل لأولئك الذين ما يزالون معتقلين في سجن تشانغي.

ألقى رئيس الوزراء وبعض أعضاء الوفد خطبهم، كلٌ بدوره وقد خلت من الحماسة. وعندما جاء دوري قررت أن أتحدث بالمالاوية. قلت: إننا لم نستطع الحصول إلا على «ثلاثة أرباع انتصار»، ولكن أولئك الذين يعتقدون أن بلداً

صغيراً مثل سنغافورة يمكن أن تحصل على الاستقلال الكامل من تلقاء أولئك الذين يعتقدون أن بلداً صغيراً مثل سنغافورة يمكن أن تحصل على الاستقلال الكامل من تلقاء نفسها لا بد أنهم مجانين، فالسبيل الوحيد إليه لا يتم إلا عبر الاندماج مع الماليو. كنت أتحدث عن الموالين للشيوعيين، الذين وصلوا بالباصات والشاحنات وتابعوا سيرهم إلى باونغ كي يحتلوا أماكنهم إلى يمين المنصة مباشرة، وبدأوا يطلقون شعارات إطلاق سراح ليم تشين سيونغ، وفونغ، وبقية المعتقلين من جماعة «الطريق الوسط». وكانوا يصرخون من وقت لآخر، ولكنهم سكتوا بإشارة من زعمائهم. كان هذا الاستعراض بمثابة تذكير بالقوة التي ما يزالون يحتفظون بها على الأرض على الرغم من خسارتهم لزعمائهم.

في غيابي قامت نقابات ليم تشين جو بممارسة الضغط على تشين تشي كي يأمرني باتخاذ موقف أصلب في لندن، والمطالبة بانتخابات مبكرة بحيث يتمكنون من الإحاطة بحكومة ليم يوهوك، وتحرير الفريق الأول من زعمائهم. وكان الحزب الشيوعي يعرف أن الصف الثاني ليس على مستوى المهمة، كما أنه كان عازفاً عن كشف كوادره الخبيرة السرية. ولم أكن أنوي إرغامهم على ذلك، وكذلك كان شأن تشين تشي. وعندما كنت في لندن تشابك ممثلو النقابات الموالون للشيوعيين مع اللجنة المركزية لحزبنا (PAP) بطريقة ماراثونية واستمرت المجابهة سبع ساعات، وانتهت في الساعة الثالثة صباحاً. كان لديهم ثلاث مطالب: رفض «مجلس الأمن الداخلي»، والاستقلال الفوري ـ والأهم من ذلك الانتخابات المبكرة التي كان ليم يوهوك مخطئاً حين وعدَ بها في آب (أغسطس) عام 1957.

عارض ذلك تشين تشي وبانغ بون. لم يكن الشيوعيون راضين كثيراً. واجهت بعض الاعتراضات من أشخاص داخل حزبنا. واتُهمنا بأننا نريد أن نحرم الجناح اليساري في الحزب من أخذ فرصته. وكان الهجوم والاعتراضات من جانب مارشال الذي كان يريد انتخابات مبكرة لعله يستطيع أن يعود إلى السلطة. وأثناء

المباحثات في لندن كان يسعى إلى منازلة، معتقداً أن الطلاب الشباب الموالين للشيوعيين سيقفون إلى جانبه. كان منزعجاً من «ثلاثة أرباع استقلال»، لأنه «لا يحقق الكرامة الإنسانية والاستقلال». وشجب الدستور ووصفه بأنه مشوه.

عندما جاء دوري في الكلام رديت له الصاع صاعين، وذكرته بمواقف المهادنة من لينوكس ـ بويد ومحاباته. وأوضحت بأن حزبنا لن يستلم السلطة حتى لو كسب الانتخابات ما لم يُفرج عن الزعماء المسجونين أولاً. وبيّنت أن قاعدتنا من الناطقين بالصينية لن تثق بنا إذا استلمنا السلطة وفرّطنا برفاقنا القدامى. نحن نفهم القيم والقواعد الأخلاقية لشعبنا وينبغي أن نبدو أمامهم أننا نعمل بأمانة.

أصغى مارشال إلى كل كلمة قلتها محاولاً أن يجد ثغرة. واتهم حزبنا بالخداع في المحادثات حول الدستور. ثم صاح من منبره موجهاً كلامه إلي: «سيدي، أريد أن نعود إلى شعب سنغافورة. سأعود إلى دائرته الانتخابية إذا كان سيعود إلى دائرته الانتخابية، وسأتحداه هناك».

ابتعدت النقابات عن اجتماع باونغ لتظهر عدم رضائها، ولكنني لم أقلق. فقد كانت تلوح آفاق معركة جديدة مع الفريق الثاني هذه المرة، ولكنني شعرت أن من الأسهل التعامل معها. كان جاميت سينغ ينصح ليم تشين جو كيف يعمل بشكل شرعي ضمن النظام، ولكن بينما كان جاميت يمتلك صوتاً جهورياً وأسلوباً خطابياً ـ جماهيرياً قوياً إلا أنه لم يكن يمتلك حساً استراتيجياً. كانا يغازلان مارشال. كانا يعلمان أنهما يتطلعان بشدة إلى انتخابات مبكرة بحيث يستطيع العودة، وقد قررا أن يستخدماه لفرض حل «الجمعية». وأثناء التداول حول مؤتمر لندن كان يتطلع إلى مجابهة، وهو يعلم أنه يملك هذه المرة الطلاب الشباب والنقابات الموالية للشيوعيين. كان يزدري (ثلاثة أرباع استقلال) إذ لا نستطيع من خلاله أن نحقق «الاستقلال والكرامة الإنسانية"، وشجب الدستور واصفاً إياه بأنه «هذا الشيء المشوه أمامنا».

اختار بعد ذلك شعار مجابهة التخريب. «كان حزب العمل الشعبي تواقاً جداً إلى حرمان جناحه اليساري من الأفراد الذي كان يدعي أنه يصادقهم. قبّلنا ديفان نير على وجنتيه وانتظرنا لينوكس بويد أن يشنقه من الخلف!» واستطرد بحماقة يقول: إن خطر المخربين كان «تدبيراً وقائياً طبيعياً وذكياً وعقلانياً... لماذا ينبغي ألا نمنع شخصاً من الاشتراك في الانتخابات يقول ثلاثة من قادتنا: إنه رجل يسعى إلى تدمير أسلوب الحياة الديمقراطية الذي نسعى إلى إقامته؟» قال هذا من أجل أن يرضي أصدقاءه الجدد، ولكنه لم يدرك أبداً أنهم كانوا يريدونه أن يطالب بانتخابات مبكرة لأن هذا من شأنه على وجه الدقة أن يمنح رجال الصف الأول في السجن فرصته لكسب بعض المقاعد، سواء كمرشحين أو من خلال وثائق تفويض لأشخاص لم يحتجزوا.

وعندما انفض اجتماع «المجلس» في الساعة الرابعة بعد الظهر، دعوت على الفور إلى مؤتمر صحفي أعلنت فيه أنني سأرسل استقالتي في نهاية الجلسة الحالية «للجمعية»، وأنني أتوقع إجراء انتخابات فرعية في غضون خمس أسابيع. وكشفت أن الحزب، في اجتماع لجنته التنفيذية في اليوم السابق، قد قرر تحدي مارشال لأننا كنا نعرف الخط الذي يسير فيه. وإنها «لمسألة حاسمة أن يكون شعب سنغافورة مستعداً لقبول الدستور ويرفض لغة التهديد والتخريب، أم يفضل تلك اللغة ويرفض الدستور». الخيار الأول كان خيارنا، والخيار الثاني فهو خيار مارشال.

في اليوم التالي، 27 نيسان أعلنت: سيدي رئيس المجلس، في نهاية هذا الاقتراح، عندما تتخذ الأصوات، سوف أتقدم باستقالتي كممثل عن منطقة تانجونغ باجار. وسأنتظر الانتخابات الفرعية في هذه المنطقة كي أكون مرشح حزبنا (PAP)

وفي أقل من 48 ساعة، أي بعد الجلسة الصباحية للجمعية، أعلن مارشال بوجه مكفهر أنه سيهجر السياسة «بصورة دائمة». وقال للصحفيين: إنه لن يشترك في الانتخابات الفرعية لأنه يخشى «أن يحدث إضراب إذا ما جرى

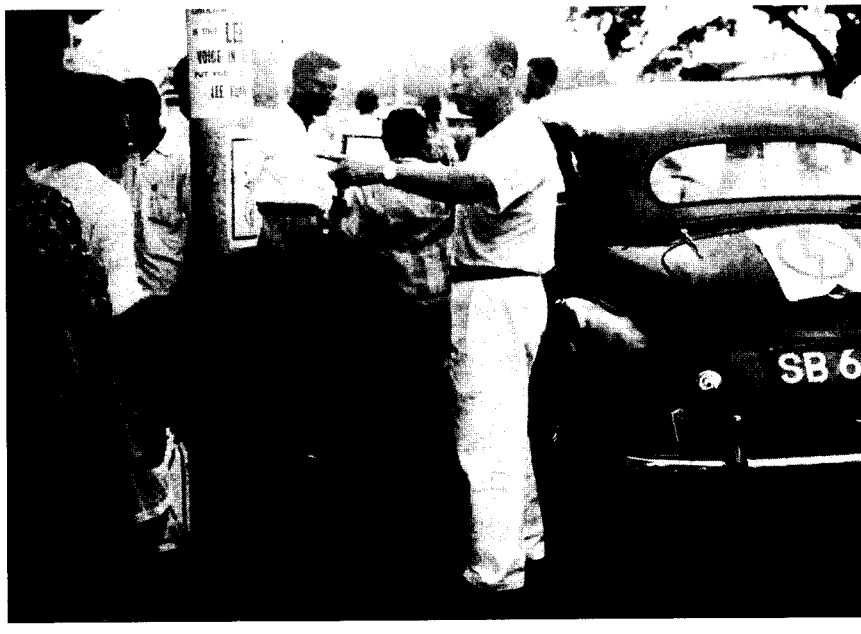

والدي يجذب المصوتين إلى الاقتراع في الانتخابات الفرعية في تانجونغ عام 1957، في سيارته «موريس ماينور»، السيارة التي قدتها لمقابلة «بلين».

صراع حول الدستور في ظل الإدارة الاستعمارية.لا أريد أن أتحمل نتائج هذه اللعبة غير الشريفة. هناك الآن إجماع على أن يختار شعب سنغافورة الدستور باطمئنان إذا كان يريده... سوف أستقيل بعد الجلسة الحالية».

أجبته بسرعة «طالما أن الحزب يريد ذلك فإن الموقف من الانتخابات الفرعية لن يتغير. سأستقيل في نهاية هذا النقاش الدائر حول دستور جديد».

أخذ ليم تشين جو والنقابات في التراجع وقد نشر أحدهم بياناً موجهاً إلى مارشال جاء فيه: هجماتك المستمرة على الحزب (PAP) قد سببت انزعاجاً شديداً للسيد لي كوان يو، ولمسؤولين ومؤيدين للحزب". وطلب الاتحاد من مارشال أن يمتنع عن مهاجمتي في دائرة تانجونغ باجار، وأن يحارب الزعيم الاشتراكي الليبرالي سي.سي تان في منطقة كيرنهيل . بدلاً من ذلك. لم يكن أمام ليم تشين جو خيارات. فالشيوعيون لم يكونوا راغبين في أن يستقيل مارشال، كما أنهم لم يكونوا يريدون أن يهاجم أحدنا الآخر أو أن يطيح به. وإنما كانوا يريدوننا كلينا في «الجمعية»، على أن يستمر مارشال في مناكفتي وإجباري على اتخاذ موقف يناسب قضيتهم. فمع غياب مارشال عن المسرح لن يكون لديهم من يناكفني، ولكن مع وجودي خارج المسرح فسيصبحون مضطرين للتعامل مع مارشال غير المستقر أو المتزن. ولقد تأكد له في الساعات الثماني والأربعين ما بين تحديه واستقالته، لم يحظ خلال ذلك الوقت بأي تأييد. وكان يعرف أنه إذا لم يهاجمني، فقد يتعرض للإهانة وهذا يعني تعرضه لهزيمة شنعاء. وقد قرر الانسحاب كلياً.

أُعلنت أسماء المرشحين للانتخابات الفرعية في 18 أيار (مايو) 1957. كان هناك مرشحان ضدي، أحدهما اشتراكي ليبرالي ومستقل. وكان غير الشيوعيين في اللجنة التنفيذية المركزية لحزبنا مصممين على جعل هذه الانتخابات بمثابة امتحان لقوتنا. كنا نريد أن نعرف مدى التأييد الشعبي المتوفر لنا في «تانجونغ باجار» بدون تأييد الشيوعيين أو حتى الوقوف ضدهم. وعندما حاول طلاب

المدارس المتوسطة الصينيين أن يناصروني منعهم بانغ بون من ذلك. أما نقابات ليم تشين جو فقد قررت استغلال الموقف بحثٍّ أعضائها على التصويت لي، ولكن تشين تشي أوضح أننا لا نحتاجهم. إذا كانوا يريدون تأييدي فهذا شأنهم. كنا نريد أن نناضل ونكسب بقوتنا. وفي 29 حزيران (يونيو) حققنا هذا النجاح بكسب نسبة 67.5% من الأصوات. ولقد دافعنا عن سياستنا، وحصلنا على تأييد قوي لها. قلت: «لقد حصلنا على نسبة عالية من الأصوات في عام 1955 لأن لدينا كل شيء، لكل الناس، والآن يعرف جميع الرجال والنساء على وجه الدقة ما نسعى إلى تحقيقه وقد صوتت لنا أغلبية حاسمة».

ما كان نذير سوء بالنسبة إلى ليم يوهوك هو نتيجة الانتخابات الفرعية في كيرنهيل أي في التنافس على مقعد مارشال الشاغر. إذ لم يخسر مرشح «جبهة العمل» تجاه الاشتراكيين الليبراليين فحسب، بل حصل على أصوات أقل من المرشح الثالث، وهو عضو سابق في «جبهة العمل» الذي رشح نفسه كمستقل. لم يكن هذا بالفأل الحسن لرئيس الوزراء

16. كشف الشيوعيين

بعد أن انتصر «حزب العمل الشعبي» (PAP) في انتخابات تانجونغ باجار الفرعية، قررت أنا وتشين تشي وبانغ بون أن نعزز المراقبة الدستورية للحزب بحيث لا يستطيع الجناح اليساري الإمساك بزمامه أو أن يستخدمنا. ولكن ليم تشين جو قرر، بدلاً من القبول بالتراجع والعمل ضمن الظرف المتغير حتى تصبح الظروف أكثر ملائمة له، أن يراهن بوضع يده على الحزب بنفسه. وكان أحد أمناء السر الفرعيين قد أخبر بانغ بون أن الموالين للشيوعيين كانوا يخططون لوضع يدهم على ثماني مقاعد من أصل 12 مقعداً تشكل اللجنة التنفيذية المركزية.

تلك كانت مغامرة أو ما يسميه الماركسيون ـ اللينيون «الطفولية اليسارية» فالموالون للشيوعيين كانوا يريدون استعراض حلهم الثوري، غير متيقنين من أنهم يحتاجون المكانة المحترمة التي يحظى بها حزبنا أكثر مما نحتاج نحن إلى تأييد جماهيرهم. لقد رسخ في عقول الناس أن حزبنا (حزب العمل الشعبي) قد أُسس كحزب عمالي راديكالي متماسك. وإذا لم نخطئ في التصرف فسنحظى دوماً بتعاطفهم وتأييدهم الطيب من أجل الصالح الذي حققناه حتى الآن. ولا بد من أن نفقد السيطرة على الحزب ونبدأ العمل من البداية، كنا نفضل ابتعاد الموالين للشيوعيين عنا، وتشكيل حزب آخر مستخدمين ديفيد مارشال كغطاء. كان اعتزال مارشال للسياسة قصيراً، فقد كان يستعد لتشكيل حزب جديد، باسم حزب العمال. ولكن لم يكن لديه المهارات السياسية للحفاظ على التوازن ما بين الأساليب المتماسكة والأساليب غير المتماسكة، وسرعان ما سيجعل حزبه الجديد يخفق.

ناقشت هذا مع كينغ سوي، وراجا تشين وبانغ بون وقررنا أن نُسرب إلى صحيفة «ستريتس تايمز» خبراً مفاده أننا ننوي في المؤتمر القادم في آب أن نتخذ سلسلة من القرارات التي ستعيد تنظيم الحزب بصورة فعالة، ونجعله يعبر

بوضوح عن «ملايو مستقلة، ديمقراطية، اشتراكية غير شيوعية». ومن أجل تنفيذ هذه السياسة، سوف نكون كتلة من ثماني مرشحين، تاركين أربع مقاعد فقط للتصويت المفتوح. وكان هذا إنذارنا النهائي ـ فنحن مستعدون لمحاربة أنصار الشيوعيين وجعلهم يفارقون الحزب. وقامت الصحيفة بنشر القصة. ولكن أنصار الشيوعيين كان لديهم الرغبة الشديدة بالتمسك بالحزب لأنهم يعرفون أن مارشال لم يكن البديل الذي يُعتمد عليه. قد يكون مفيداً لأعمال متفرقة جانبية أي لجعل الحزب يسير في سكتهم، ولكنه لن يكون قادراً على الثبات على المدى الطويل. وكان من الأسهل بالنسبة لهم أن يركزوا هجومهم على اللجنة التنفيذية المركزية.

ولكن الأمور لم تسر كما نشتهي. ويبدو أننا كنا ما نزال نفتقر إلى الحنكة في إدارة اللعبة السياسية. فكثير من الأعضاء كانوا أوفياء لنقاباتهم أكثر من الوفاء للحزب. واستطاعت هذه النقابات والاتحادات أن تتضامن وتحقق نتيجة مهمة. ففي مؤتمر الحزب الذي انعقد في يوم الأحد 4 آب (أغسطس) زاد عدد مؤيديهم على عدد مؤيدينا، وانتهى التصويت إلى مناصفة الأصوات، حيث حصل أنصار الشيوعيين على ست مقاعد وحصل غير الشيوعيين على ست مقاعد.

كنا أمام معضلة. فالسيطرة على الحزب ستضعنا أمام ورطة، لأننا لا نملك من الأصوات ما يجعلنا ننفذ سياستنا. وعدم سيطرتنا على الحزب يعني فقدان سيطرتنا على الشيوعيين، وإعادة تنظيم الحزب في غير صالحنا. وقدرت أن ليم يوهوك من غير المحتمل أن يُبقي هؤلاء في موقع قوة طويلاً، وبالتأكيد ليس قبل الانتخابات العامة القادمة، ولكن هذا سيعطي CUF الوقت لإعادة بناء قوته داخل النقابات والحزب. وبعد المداولة أصدرت بياناً موقعاً من الأعضاء الستة غير الشيوعيين، أي منا: «بسبب عدم انتخاب ثلاث أعضاء من الأعضاء الثمانية المستقلين (وكان أحدهم غير شيوعي) نحن لا نعتبر أن لنا الحق الأخلاقي في الاستيلاء على منصب الرئيس، والأمين العام والمسؤول المالي ونوابهم».

كان الموالون للشيوعيين في حيرة من أمرهم. فهم لم يفكروا في تكتيكاتهم جيداً. فقد توقعوا منا أن نستمر في مجابهتهم في اللجنة التنفيذية المركزية، ولا سيما إذا ما نحّونا جانباً، وأمسكوا بالمناصب الرئيسة مثل الرئيس ووزير المال. ولكنا قررنا أن نحملهم المسؤولية بحيث إنهم إذا اتخذوا أي إجراء يناسب الشيوعيين فسيكون على حسابهم تماماً. كنت متأكداً أن ليم يوهوك لن يسمح لهم أبداً أن يصبحوا تهديداً له، بل سيتحرك ضدهم حتى لو اتخذوا من مارشال غطاء لهم: لذا كنا سعداء لو وضعوا أيديهم على المناصب العليا. ولكنهم لم يفعلوا. ساومونا على أن يستمر تشين تشي رئيساً وأن أستمر أنا أميناً عاماً، وأكدوا لنا أنهم يعرضون علينا أن يكون لنا عضوان في اللجنة، ويكون لهم عضو واحد، مما يعطينا أكثرية تكتيكية. وعندما رفضنا انتابهم الغضب، لأنهم يعرفون مدى هشاشتهم بدون أن نكون نحن في الطليعة. وبعد بعض التردد شغلوا المكاتب الأساسية وعينوا تان تشونغ كين رئيساً، وت.ت راجا، وهو محام يساري، أميناً عاماً. أعطيتهم ما بين ست أشهر وسنة حتى يقعوا في مشكلة. ولكنني كنت على خطأ.

كان لدى ليم تشين جو خططاً أخرى بعيدة المدى. كان جاميت سينغ ولجنته العاملة قد افتتحا المناقشات مع مجلس غرفة سنغافورة التجارية (STUS) للتفاوض حول اندماج مع SGOU وفروعه في «ميدل رود». وهذا من شأنه أن يؤدي إلى أن يسيطر الموالون للشيوعيين على القاعدة الجماهيرية التابعة إلى ليم يوهوك في الحركة النقابية.

كنا نأمل من وراء ذلك إلى إرباكهم وإظهار ضعفهم. ولكن الخطة لم تنجح تماماً. إذ كان الأمر يحتاج إلى بعض الوقت. ولكن لم تلبث الأمور أن تغيرت. ففي ليلة 22 آب اعتقل «الفرع الخاص» 35 شخصاً ـ ليم تشين جو و12 نقابياً آخر، وأربع صحفيين و18 عضواً في حزبنا (PAP) بمن في ذلك جميع الموالين للشيوعيين في اللجنة التنفيذية المركزية، ما عدا ت.ت. راجاه. كانوا في

مناصبهم منذ عشرة أيام فقط. شعر راجاه بالخوف والمرض والاضطراب فقدم استقالته بسرعة في 3 أيلول. ولم يكن زعماء الصف الثاني في الحزب CUF يفتقرون إلى الطموح. فقد أرادوا ما لا يقل عن جبهة متحدة تتألف من حزبنا، و«الجبهة العمالية»، ومشروع حزب العمال الذي يُحضر له مارشال، بالإضافة إلى اندماج يعطيهم هيمنة كاملة على النقابات. وبدلاً من ذلك تلقوا درساً بسبب حماقة حب المغامرة لدى اليساريين.

وكان ليم يوهوك وضعنا، بتحركه السريع، بعد أن سيطر الشيوعيون على الحزب، في الوحل. فقد ظهرنا بمظهر من خان أنصار الشيوعيين، بإبعاد أنفسنا عن تصرفاتهم وتركهم مكشوفين على نحو مريع. وفي 23 آب أصدرت الحكومة كتاباً أبيض يتضمن فصلاً عن «تغلغل الشيوعيين في حزبنا». ومن أجل أن نُبرئ أنفسنا من لحظة هذه الاعتقالات، اقترحت على «الجمعية» في 12 أيلول (سبتمبر) أن تعلن عدم علاقتها بهذه الترهات. وأشرت إلى أن المشكلة تكمن في رئيس الوزراء بالدرجة الأولى، لأن قاعدته الشعبية باتت في قبضة ليم تشين جو. وهو لم يتصرف على هذه المشكلة ليقدم خدمة لحزبنا (حزب العمل الشعبي)، بل لينقذ موقفه في الوقت المناسب كي يسبب لنا أقصى إحراج سياسي.

إذا كان الشيوعيون قد تلقوا درساً بسبب الحماقة، فإن حزبنا قد فعل مثلهم. ارتكب حماقة تبني دستور ديمقراطي جعله عرضة للخضوع إلى السيطرة من خلال تسلسل فروعه. ناقشنا عدة تغييرات محتملة كي لا يتكرر ذلك ثانية. ولكن حتى مع قيامي مع بانغ بون بالشروع بتطهير الفروع، كنا مشغولين بالتحضير لانتخابات مجلس المدينة المقررة في شهر كانون الأول. بعد عمليتي التطهير اللتين قام بهما ليم يوهوك في عامي 1956 و1957، فإن هذه الانتخابات ستكون الامتحان الأول للرأي العام.وقد ازدادت الهيئة الانتخابية بمقدار 10 مرات منذ عام 1951 لتصل إلى خمسمائة ألف بعد أن أُقرّ قانون المواطنة في تشرين الأول عام 1957 كي يمكن أولئك الذين أقاموا في سنغافورة لمدة 8 سنوات، بدلاً من العشر سنوات التي كانت مقررة، أن يُسجلوا كمواطنين حتى ولو لم يولدوا هناك.

كان اهتمامي الأساسي أن أتجنب الاصطدام مع ليم يوهوك وجبهته العمالية، لأن هذا من شأنه أن يزيد من كراهية الناطقين بالصينية تجاهه، ويُضعف موقفه السياسي ويجعله يتخذ مواقفَ تُضعف حزبنا. وبالعمل صمتاً من خلال زعيم «منظمة الملايو الوطنية المتحدة» (UMNO)، حامد جُمعات الذي كان الرجل الثاني فعلياً في الحكومة، تفاوضت حول تفاهم انتخابي بحيث لا يختلف أو يتعارض كل من حزبنا و «المنظمة» المذكورة و«الجبهة العمالية»، بل يتشاركون المقاعد الاثنين والثلاثين في المجلس ـ 14 عضواً لحزبنا، وعضوان للمنظمة، و16 عضواً «للجبهة العمالية». وقد تعاهدنا على ألا يهاجم أحدنا الآخر، بل أن نوجه هجومنا نحو الاشتراكيين «الليبراليين»، ونلقي على أسلافهم أوجه القصور السابقة «لمجلس المدينة القديم»، وهم «التقدميون»، الذين كانوا مسؤولين عن ذلك المجلس منذ بداية الخمسينيات، عندما جرت الانتخابات لأول مرة وقرابة نهاية الحملة، حوّلنا انتقاداتنا إزاء سوء الإدارة البلدية إلى هجوم سياسي واسع، وأظهرنا الصراع بأنه مجابهة ما بين عمال حزبنا في مواجهة الرأسماليين (الاشتراكيين الليبراليين).

كان يوم الاقتراع هو يوم الثاني والعشرين من كانون الأول 1957. في تلك الليلة كنت أقف في حقل أمام «قاعة فكتوريا التذكارية» حيث كان يجري إحصاء الأصوات. كان ثمة جمهور غفير من الشباب الصينيين اليافعين من طلاب المدارس والعمال جالسين فوق العشب، وخلفهم صف من رجال الشرطة. وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً رأيت رجلاً طويلاً يندفع عبر الحشود إلى القاعة. كان بيل غود الحاكم. كان رجلاً شجاعاً. وكان في منصب الأمين العام الأول عندما جرت موجة الاعتقالات الأولى في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وفي منصب الحاكم عندما جرت عملية التطهير الثانية لأنصار الشيوعيين. لم يُظهر أي خوف. وقد ازداد إعجابي به.

كانت نتائج الانتخابات كارثية بالنسبة إلى ليم يوهوك. إذ لم تحصل «جبهة العمل» على أربع مقاعد من أصل المقاعد الستة عشر التي كانوا يطمحون إليها. وحصل حزبنا على 13 مقعداً من أصل 14 مقعداً، وحصلت منظمة (UMNO) على مقعدين، وحزب العمال على أربع مقاعد من أصل خمسة، وقد ذهب مقعدان إلى المستقلين. حصل حزبنا على أكبر عدد من المقاعد، مما يعادل 30% من مجموع الأصوات، وأعلى رقم من الناخبين للمرشح الواحد.

كانت المنافسة الأكثر أهمية في جالان بيسار حيث كان مرشح الحزب تشان تشي سينغ، وهو غير شيوعي ناطق بالصينية، يحمل حزام «الجيدو» الأسود، قوي البنيان، غير مثقف، ولكنه وفيٌّ ونشيط ويجيد العمل في الحملات. طرح الموالون للشيوعيين ضده مرشحاً يعمل تحت غطاء حزب العمال الجديد التابع لمارشال (الذي تسللوا إليه في حينه كما توقعت) كي يثبتوا أنهم يستطيعون أن يهزمونا إذا أرادوا ذلك. وبالرغم أنهم خسروا بهامش واضح حاصلين على 1600 صوت مقابل 2400 صوت لنا، فإن هزيمتهم لم تكن حاسمة، كانت قوتهم المستترة جلية، لم يهاجمونا علانية لكوننا ليّنين في علاقتنا مع ليم يوهوك والاستعماريين البريطانيين، أو لفشلنا في النضال من أجل رفاقنا الحزبيين المحتجزين، ولكنهم كانوا يلوحون بذلك في كلامهم. كانوا قادرين على حشد أصوات كثيرة عن طريق طوافهم من منزل إلى آخر.

في ذروة هذه النتائج قررنا أن نراهن على منصب رئاسة «مجلس المدينة» بالتحالف مع عضوي منظمة (UMNO) وهذا قد أعطانا 15 مقعداً من أصل 32 مقعداً، وكنا على ثقة أن الباقين لن يكونوا قادرين على التحالف ضدنا. وظن ليم يوهوك بأننا قد نجامله بضم مستشاريه الأربعة إلى التحالف، ولكن هذا يمكن أن يكون عبئاً سياسياً ثقيلاً بالنسبة لنا. كما أن التحالف مع شخص مثله يمكن أن يثير الشكوك حول وجود تواطؤ بينه وبيني عندما قام باعتقال أعضاء اللجنة التنفيذية الموالين للشيوعيين في حزبنا.

ولكن الخطر على حزبنا قد ازداد. فقبل هذا الامتحان الانتخابي كان ليم يوهوك يعلق الآمال على أن حملته القاسية ضد الشيوعيين قد أكسبته على الأقل تأييد نصف السكان ـ من مالاويين. وهنود، وصينيين من ذوي الثقافة الإنكليزية وبعض المعادين للشيوعية من السكان الصينيين.

لم تكن إدارة أونغ لمجلس المدينة إدارة حكيمة. إذا أتسمت بالصلف مما جعل معظم موظفيه يستاؤون منه. كانت إدارته بيروقراطية، وكان يعطي الأوامر عن طريق صيغة له في مدينة باتوباهات، لا يقبل أية مناقشة.ومن حسن حظه أنه لم يكمل مدة خدمته التي تستمر ثلاث سنوات، وبذا نجا من المحاسبة على الأضرار التي ألحقها بالنظام. وإذا كان قد أجرى بعض الأعمال الجيدة من أعمال البلديات كإنارة الشوارع وجلب الكهرباء، إلى مناطق نائية وتخفيض أسعار استهلاك الكهرباء.

كما أن وجوده في هذا المنصب أدخل السرور على قلوب الناطقين بالصينية.فطوال حياتهم كانوا مبعدين عن السلطة. والآن لديهم من يتحدث لغة الهوكين، لغتهم، ويحيي آمالهم. ولكن أونغ خلق من الصعاب والمشاكل ما يحتاج إلى سنوات لإصلاحه. كان يتيه إعجاباً بنفسه ويتمسك بالسلطة ويحاول استرضاء الجمهور ليحتل عناوين الصحف.

كنت أعلم أنه سيلحق أضراراً بالبلاد وبحزبنا، ولكنني ارتأيت أن أدعه يركب الموجة في الوقت الحاضر ثم أسوي الأمور بعد الانتخابات العامة، لقد أفقدنا من شعبية الناطقين بالإنكليزية أكثر بكثير من أكسبنا من الشعبية لدى الناطقين بالصينية.

لم يكن ذلك قلقي الوحيد. كان مرشحنا لمنصب محافظ هو أونغ اينغ جيوان الذي كان ظهوره كجامع للأصوات من أجل حزبنا تطوراً مهماً أثناء الحملة الانتخابية. كان أونغ، كشأن ليم تشين سيونغ، من الهوكين ويتحدث اللغة الدارجة كمواطن. صحيح أنه لم يكن يملك جدية ليم وسلوكه الصادق، ولكن كان لديه

صوت جهوري، وكان وجهه لا يدل على قوة. ولكن من خلال الخطب التي ألقاها طوال تلك الأسابيع الخمسة، أصبح عنصراً جيداً بالنسبة إلى ليم تشين سيونغ. ومن دواعي دهشتي أنه أخذ يبدي أمارات جنون العظمة. فالهتافات المدوية التي كانت تصفق لخطبه بلغة الهوكين في الحملات الانتخابية جعلته يحس بالفخر. وأضاف حصوله على منصب محافظ من أوهام القوة لديه. ففي الطريق إلى الاجتماع الافتتاحي لـ «مجلس المدينة» الجديد في 23 كانون الأول اصطدم مع جمهور من مؤيدي حزبنا الشبان الذين كانوا قد أطلقوا أسهماً نارية خارج «قاعة المدينة». تعرض ضابط صيني للشباب ولكن أونغ الذي كان واقفاً هناك تدخل في الأمر. في تلك المعمعة اعتقل هو واثنان من المستشارين في حزبنا، وسيقوا إلى مخفر الشرطة المركزي ومن ثم أفرج عنهم بعد أن أُخذت أقوالهم. فكان لا بد من تأجيل الاجتماع إلى الغد.

في اليوم التالي ظهر أونغ كشخصية جماهيرية. سمح لمئات من الآلاف الذين تجمعوا خارج «سيتي هول» أن يتجمعوا في البناء وحتى في قاعة المجمع نفسها، بما في ذلك الطلاب والشبيبة الذين كان كثيرون منهم حفاة أو عراة الصدر من الأولاد الفقراء الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة والثامنة من العمر. وسرعان ما وقفت الحشود على طاولات بيع الصحف. بل إنها اندفعت إلى مكاتب المستشارين الجالسين خلف مكاتبهم. لقد أتوا كي يصيحوا ويهتفوا ويكونوا جزءاً من الإثارة رغم أنهم لم يكونوا يفهمون أي شيء مما يجري.

وهذا ما جعل محافظ المدينة البارز ج.ت.ريا، وهو ضابط بريطاني محترف، يحتاج إلى 15 دقيقة كي يشق طريقه إلى القاعة عبر باب خلفي بحيث يستطيع أن يفتتح الاجتماع. كان موظفو المجلس في حالة صدمة.

بات المستشارون الجدد الآن يستطيعون ممارسة الامتياز المكتسب حديثاً، وهو التحدث بلغة الماندرين أو الملايو أو التاميل، وعندما قام عضو اشتراكي ليبرالي بإلقاء خطبته الأولى بالإنكليزية، استاء الجمهور، رغم أنه كان يهنئ «أونغ»

بانتخابه رئيس بلدية. استاء أونغ مما لقيه من تزلف. وأعلن أنه لن يرتدي لباس المحافظ أو يقيم في قصره. إنه لم يكن يؤمن بزخارف المنصب هذه. بل سيعيش ويلبس مثل أي مواطن عادي. لم يكن يرتاد حفلات الكوكتيل. كما لم يكن يدخن أو يشرب الخمر أو يذهب إلى السباق.

سمح لكل مستشار من المستشارين الواحد والثلاثين أن يتحدث لمدة دقيقتين، ثم يصوت من غير إشعار سابق على سلطة رئيس البلدية. وأمر أونغ أن تكون "من صلاحيات مجلس مدينة سنغافورة". ثم شق طريقه عبر المتفرجين إلى الشرفة، حيث رُكّبت مكبرات الصوت بناء على طلبه، وتوجه بالحديث إلى الجمهور في الخارج بلغة الماندرين لمدة عشر دقائق. ومن ثم أنهى حديثه بثلاث صيحات «ميرديكا»! فهتفت الجماهير ورددت بانسجام. وفي اليوم التالي كان العنوان الرئيسي لصحيفة «ستريتس تايمز» في عيد ميلادها «ليحمِ الله سنغافورة».

كتب «غود» مستاء إلى لينوكس بويد في تقريره بتاريخ 27 كانون الأول (ديسمبر): «الكرامة المعتادة للأحداث قد تلاشت». وكان موظفو مجلس المدينة من البيض والآسيويين فزعين. والمغتربون كانوا خائفين على مستقبلهم. ولكن، كما أضاف، لم يكن ثمة انتقاد لعمل الشرطة كما لا توجد ضغينة من جانب الشرطة تجاه حزب العمل الشعبي (PAP) ولي كوان يو بعيداً يتمتع بعطلة عيد الميلاد!. الحق أنني كنت في الخارج. في الليلة التي جرت فيها الاقتراعات كان حلقي جافاً للغاية من جراء تدخين السجائر أثناء الحملة الانتخابية بحيث لم أعد قادراً على شكر الجمهور لتأييدهم. وفي صباح اليوم التالي حملت أسرتي في سيارتي الستوبيكر وتوجهت نحو هضبة فراسير لقضاء إجازة مدتها عشرة أيام.

في الأشهر الستة عشرة التالية ترأس أونغ مجلس المدينة بوصفه محافظاً، يخرج مشهداً بعد آخر، فسلوكه المتعجرف أحبط موظفيه وأخاف الكتبة والموظفين الناطقين بالإنكليزية. كان يلهو كما يروق له، ويعطي الأوامر عبر صديق من بلده باتوفاهات الذي جعله يقوم بكل الأعمال التي يطلبها منه ويطلبها

بدون أي سؤال. وكان من حسن طالعه أنه لم يستمر فترة السنوات الثلاثة، وهكذا لم يُستدع للمحاسبة على ما ألحقه من ضرر بالنظام. إذ كان من المقرر أن تجري انتخابات عامة في أيار من عام 1959، أي في نهاية فترة حكومة ليم يوهوك، لذا لم يتسن فضح ضعفه. وأكثر من ذلك أنه كان قادراً على تنفيذ برامج شعبية غير مكلفة ولا سيما في مناطق سنغافورة المحرومة. لقد أمر بإنارة الشوارع وتركيب المواسير، وجلب مصارف المياه والطاقة الكهربائية إلى القرى، وخفض كلفة الكهرباء من 20 إلى 12 سنتاً للوحدة في المناطق الفقيرة. وأوجد «مكتب استعلامات المدينة» لكي يعمم هذه الانجازات، كما فتح مكتباً للشكاوى العامة، وعقد جلسات «لقاء مع الجماهير».

كان الناطقون بالإنكليزية خائفين ولكن غرائب أونغ أدخلت السرور على قلوب الناطقين بالصينية. فطوال حياتهم كانوا مبعدين عن السلطة، أما الآن أصبح لديهم هوكين يتحدث لغتهم ويوجد منفساً لخيبات أملهم. ولكن أونغ خلق مشكلات تفسد الأمور لسنوات. فقد سمح على سبيل المثال للباعة المتجولين أن يجوبوا في كثير من الشوارع الرئيسية في المدينة، ولا سيما في «تشاينا تاون»، حيث كانوا يبقون في الأطراف، كما ويسمح لهم بالتجول بعد ساعات الدوام الرسمي فقط. كان أشبه برجل تحتوذ عليه السلطة والتحلق. كان يريد اسمه أن يحتل عناوين الأخبار في الصحف كل يوم. استمر في إثارة التوقعات ذات الطابع الدرامي، وكأنه لن يأتي غد ينبغي أن تسدد فيه الفواتير. كنت أعرف أنه يلحق ضرراً فادحاً بالبلاد وبحزبنا، ولكنني رأيت أن من الأفضل أن أدعه يركب الموجة في الوقت الحاضر وأن أوضح الأشياء بعد الانتخابات العامة.

فالشعبية التي خسرها في أوساط الناطقين بالإنكليزية عوضها بأرباح في أوساط الناطقين بالصينية.